من وحي النيل

بقلم وديع ديب

لقد احسست وانا واقف على شاطيء نهر النيل بان الارض توشك ان تنهار تحت قدمي . فقد راعني هذا المنظر الرهيب منظر غمر من الماء يجري متدافعا الى مستقر قد يضيق عن فيضه العارم . ولا ادري كيف استحوذ علي شعور صبياني بان الاهرام ما ارتفعت فوق مناكب ارضه الا لتمكنها من الصمود امام هذا الغمر الجارف. واحسست اذ ذاك بان مثل هذا النهر العظيم جدير بان يوحي بكل جليل رائع . واخذت تتداعى الافكار في ذهني وتتزاحم الاماني في نفسي تزاحم الامواج المتواكبة في شواطئه البعيدة ! وهنا تذكرت ان شاعر العرب الكبير ابا الطيب المتنبي كان قد تلاقى وهذا النهر الكبير في مهرجان العطاء السخي ، وهتف على شواطئه الفامرة :

اقل اشتياقا ايها القلب ربما … رأيتك تصفي الود من ليس صافيا
خلقت الوفا لو رجعت الى الصبا … لفارقت شيبي موجع القلب باكيا
ولكن بالفساط بحرا ازرته … حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

وعجبت كيف لم يحفل الشاعر العظيم بالنهر العظيم بحيث يضفي على مغانيه وشيا من سحر بيانه وروعة انشاده . والظاهر ان النيل لم يكن في نظره سوى رمز العطاء في مداه الواسع :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم … الى غيوث يديه والشآبيب
الى الذي تهب الدولات راحته … ولا يمن على آثار موهوب

على ان الرياح جرت بغير ما تمنى شاعرها حتى اذا ما عاد من مصر فاشلا اخذ يعرض بكافور عاتبا على الايام التي مهدت له طريق الوصول الى عرش بلد يجري النيل في واديه سخيا كريما . في حين ان هذا الملك الضنين كان يترقب مجيء ضيوفه ليأكل من زادهم وبالتالي ليسيء اليهم ويمنعهم من مغادرة ارضه مخافة التكسب والانتفاع. فكيف يطيب بعد هذا للمتنبي ان يعيش مفردا على شواطيء النيل في ظل ملك حقير يصفر عن ان يكون رافدا صغيرا من روافده . وكان لا بد له هنا من ان يتذكر اميره الحمداني في لقائه وسخائه ، فاذا به يهتف من حيث لا يعي :

نفص البعد عنك قرب العطايا … مرتعي مخصب وجسمي نحيل
ان تبوأت غير دنياي دارا … واتاني نيل فانت المنيل
من عبيدي وان عشت لي الف كافور … ولي من نداك ريف ونيل

وكما نظر المتنبي للنيل في الامس البعيد هكذا نظر اليه شاعره حافظ ابراهيم في الامس القريب ، فلم يكن هذا النهر الفامر بحسب رأيه ، سوى مصدر خير لابنائه يكفيهم مؤونة التطلع الى مناهل ثانية بحيث يبعد عنهم حبائل المستعمرين :

ارى احداثكم ملكوا علينا … بمصر موارد العيش الرغيد
وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعا … وضاق بحملهم ذرع البريد
فنح غضاضة «التاميز» عنا … كفانا سائغ النيل السعيد

هذا وما اعلم اذا كان حافظ ابراهيم قد استحق لقب شاعر النيل لمجرد ولادته على ظهر سفينة كانت تتهادى على ثبج مائه ، وليس من همي ان ابحث في هذه الكلمة العابرة عن الالقاب الادبية وكيفية توزيعها على اصحابها في تلك الايام ، وانما همي ينحصر في التعرف بالجو الذي هيأه وادي النيل لمستلهميه من الشعراء . اقول هذا اعتقادا مني بان الانهار العظيمة جديرة بخلق الآداب العظيمة . وطبيعي أن يكون الفرق شاسعا بين شعب يعيش في القفر الجديب وآخر يعيش في الوادي الممرع الخصيب . ان الحضارة الواسعة لا تكون بغير الخصب الواسع . فالماء حياة كل ذي روح وقوام كل نمو وتقدم . كما في الآية الكريمة « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . من اجل هذا فان الكثير من روعة شعر المتنبي يعود بالدرجة الاولى الى ما استوحاه من روائع الانهار والبحار . ولولا ذلك لما اتحفنا بمثل هذا القول الحكيم :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه … تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

على انه من الخير بعد هذا العرض السريع ان احدثك عن الشاعر الذي قصدته في هذه الكلمة العجلى . وليس من المستلزم ان يكون حديثي عنه دليلا على ايثاره . فانه مهما يكن حظه من الابداع فلن يجرؤ احد على تقديمه على ابي الطيب . واعني به الشاعر علي محمود طه المهندس الذي لطف الماء من شعوره ، فجاء انشاده رقيقا كالندى ، هامسا كالينبوع . اليك كيف يصف الشواطيء المصرية :

حبباك ارضا وازدهاك سماء … بحر شدا صخرا وصفق ماء
يحبو شعابك في الضحى قبلاته … ويرف انفاسا بهن مساء
ولع بتخطيط الرمال كأنه … عرافة تستطلع الانباء

وغني عن البيان ان الشاعر كان شغوفا بالبحار والانهار والبحيرات فلم يكن يطيب له مجلس بغير الماء . وقد استهوته مدينة فنيس الايطالية بشوارعها المائية ، حيث يتهادى الشراع اثر الشراع وعليه من الحسان اسراب تملأ القلب بهجة وسلاما . ولكن فنيس لم تكن لتنسيه وادي النيل ، وهنا يكمن سر الابداع في اخلاصه الفني . ولعل قصيدة الجندول ، هي اروع قصائده حسا واجملها صورة والطفها ظلا ، لما اشتملت عليه من ذكريات ندية صافية :

اين من عيني هاتيك المجالي … يا عروس البحر يا حلم الخيال
اين عشاقك سمار الليالي … اين من واديك يا مهد الجمال
موكب الغيد وعيد الكرنفال … وسرى الجندول في عرض القنال

قلت والنشوة تسري في لساني … هاجت الذكرى فاين الهرمان
اين وادي السحر صداح المغاني … اين ماء النيل اين الضفتان

آه لو كنت معي نختال عبره … بشراع تسبح الانجم اثره
حيث يروي الموج في ارخم نبره … حلم ليل من ليالي كيلوبتره

في مثل هذا الجو الحالم الحزين يعيش الشاعر لياليه

الحائك

يمناه دون النول تنتجع ... ما كرت الآحاد والجمع
لا تأتلي يمناه ناسجة ... حللا على العورات تتسع
عريانة تسعى ومن عجب ... في مثلها الحرمات تمتنع
عريانة والحق من أزل ... عار ونهج الحق يتبع
والمكر لا ينفك من زيف ... ببهارج الاسمال يلتفع
وتجيء بالاحسان سابقة ... في كل ما تأتي وتبتدع
وبكل ميدان تصول به ... أعلامها في الافق ترتفع
نسج ترى نور الربيع به ... متألقا يزكو ويلتمع

***

نول كأن الغيب فيه ثوى ... متسلطا ينهي ويشترع
أو أنه اللوح الذي رسمت ... فيه العناية غيب ما يقع
من دونه الارزاق سائلة ... تجري على قدر وتنقطع
تتطلع الابصار شاخصة ... كالمستجير به وتنتجع
عين تلاحظه وترمقه ... ويد على الاوجاع ترتفع
يجزي على الاحسان صانعه ... في سعيه ويثاب مبتدع
وينوء بالحرمان من يده ... تنأى عن الجلى وتمتنع
ورأيت كسب المرء مرتهنا ... بمرير ما يمناه تقتطع

***

مرت كومض عقيقة يده ... في حالك والليل مكتنع
وجرت تؤلف بين مختلف ... وتضم منشعبا فيجتمع
فكأنها في جريها قدر ... لا تنثني كللا وترتدع
تسعى ومن عجب أناملها ... في حشوها الاسقام والوجع
عصف العياء بها فما وهنت ... وبطوقها للسعي متسع
واستعذبت مر السقام وهل ... في مورد الاسقام منتجع
حبكت جليلا ، لم تشن بأذى ... أفوافه أو شابها طبع
وأتت بنسج وشيه عجب ... يفتر عن زاه ويلتمع
يا رب ضاح حشوه شجن ... والمدمع من جنبيه ينهمع

دمشق

عدنان مردم بك

الوارفة ، في ظلال الماء والصهباء ، وكأنما الحياة حلم جميل يبدده الضياء كلما اشرق الضياء :

ما ترى الاغيد وضاء الاسره ... دق بالساق وقد اسلم صدره
لمحب لف بالساعد خصره ... ليت هذا الليل لا يطلع فجره

وكان ان لفه الليل الذي تمناه وهو ما يزال في ميعة الصبا ، وهو الذي راعه في الامس موت زميله فوزي المعلوف في صباه الباكر ، فرثاه على غير معرفة واكتفى بان يتلو قصيدة الرثاء هذه ، على مسمع صديقه فؤاد صروف، الذي اوحى بها يوم تلا عليه بعض المقاطع من قصيدة « بساط الريح » .

ومما قاله في صاحبه :

قد راعني موتك يا شاعري ... في ميعة العمر وفجر الشباب
وهزني ما فاض من خاطر ... كان ينابيع البيان العذاب

وبعد فما عساي ان اقول في الشاعر اكثر من هذا :

قد راعني موتك يا شاعري ... في ميعة العمر وفجر الشباب

وديع ديب



صديق شيبوب

صديق شيبوب

بقلم محمد رجب البيومي

اذا تعاطى الاديب الضليع بحثا علميا دقيقا كان اقدر على توضيحه من عالم متخصص لا يستعين بالادب ! تلك حقيقة ثبتت لدي من تجربة خاصة بي مع الكاتب الكبير الاستاذ صديق شيبوب ، وهأنذا ابسطها للقراء .

كنت في سنة ١٩٤٩ طالبا بمعهد التربية العالي للمعلمين وكانت دروس علم النفس بين المواد التي يقوم بتدريسها الاساتذة المتخصصون ، وكلهم دكتور في علمه يحمل ارقى الاجازات العلمية ، فكنت اسمع الى اساتذتي فأجد حشودا من المصطلحات العلمية والتعريفات المنطقية تتابع في كل محاضرة دون ان استشف خلاصة واضحة للحقائق الجوهرية في علم النفس ، فاذا انتهت المحاضرات ورجعنا الى مصادرها في كتب الاساتذة لم نكد نجد فرقا بين المحاضرة ومراجعها ، لان الدكتور المدرس قد نقل الحرف المطبوع الى لفظ مسموع فقط ، اما التشدق بالالفاظ الافرنجية فما اكثره واوفاه فاذا حاولت ان تستوضح ما وراءها من المعاني قيل لك ان الدراسات الجامعية على نظام المحاضرات لا تسمح بالشرح والتوضيح فالاستاذ يلقي فقط وعليك ان تصل الى كل شيء بنفسك ! ثم جاء دور العلامة النفسي الكبير سيجموند فرويد في الدراسة ، فهالنا ان تسرد نظرياته سردا في الفاظ من العربية والانجليزية والفرنسية معا متخمة بالمراجع دون تحليل مبسط لاحدى هذه النظريات يسير بالطالب من درجة الى درجة حتى يصعد الى الدرجة الاخيرة في سلم فرويد ، فاكتأبت لما اشهد ، وصادف ان قابلت استاذي الدكتور زكي مبارك فشرحت له مأساتي مع فرويد ولم اقل مع اساتذة المعهد تأدبا فاشار علي ان أراجع بحوثا متوالية عن العلامة الكبير نشرها الكاتب القدير الاستاذ صديق شيبوب في ذكراه الاولى ، ودل على موضعها من الرسالة فتفضل استاذي الجليل احمد حسن الزيات ومنحني اعداد السنة الثامنة باجمعها ، واخذت اقرأ مقالات صديق فماذا رأيت ؟ رأيت ان الكاتب بدأ بحوثه بايضاح عن نشأة الرجل وتكوينه ، فعرض ظروف طفولته وشبابه ودراسته وقراءاته وتجاربه، وجلا كثيرا من اخلاقه وعاداته وملاحظاته وحلل عوامل نشاطه وافانين مذاهبه ليبين كيف اهلته الى النجاح في عمله كطبيب والتفوق في بحوثه كعالم مكتشف ، ورسم الخطوط البارزة لسلوكه العملي والعقلي فهو يؤثر الوضوح والجلاء محللا كل دقيق حتى تنجلي خباياه ! ومن هنا كان شغفه بالتحليل النفسي وهو بعد قاس عنيف صارم متئد يدير الفكرة في نفسه سنوات حتى يجزم بها فيقدمهاللعالم في وثوق وعناد ! ثم جلا طرفا من تجاربه على مرضاه واستخلاصه العجيب لما عرف على يده من العقل الباطن مبينا طبقات النفس البشرية ومحللا اعماقها وشارحا اندفاعاتها الواعية وغير الواعية مهتديا الى رموز النفس المجهولة كالافعال الغائبة والفلتات اللسانية والاحلام موضحا اهمية الغريزة الجنسية اذ كانت اهم القوى الفعالة في رأيه دارسا بعض الشذوذ الذائع في حياة مشاهير الرجال حتى اقام مذهبه النفسي صرحا وطيد الدعائم ! وصار من القوة بحيث يدور حوله اكثر ما تلاه من البحوث النفسية !! وقد خرجت من مقالات شيبوب الخمس بما لم اكتسبه من دراسة عام كامل بين اساتذة نابهين .

هذه تجربة قديمة .. ذكرتني بها تجربة حديثة ، فقد طلب مني في العام الماضي ان القي محاضرة عن القومية العربية ! وكانت المراجع من الغزارة والوفرة بحيث تجعل جهد المحاضر سهلا غير عسير ! وبعد ان قمت بجولات طويلة في بعض ما كتب ، وقع في يدي كتاب الاستاذ صديق شيبوب في القومية العربية ، فيالله كم حوى هذا السفر المحدود من الحقائق ما غاب عن اصحاب المجلدات الضخام! وكانت استقامة منهجه وتسلسل ابوابه ، ووضوح افكاره ، وعمق نظراته مع عذوبة تعبيره مما اجلسه الصدارة فيما ألف ونشر ، ! فقد تحدث عن القوميات بوجه عام متجها الى القومية العربية في الجاهلية فصدر الاسلام متحدثا عما اعترضها من الحركات الهدامة ليصل سلسلة التاريخ الى الدولة العباسية مسهبا في انتفاضات الشعوبية وموجات القرامطة والصليبيين والتتار حتى اذا انتهى الى العصر الحديث افاض افاضة الدارس المستوعب ، ونظر بعين الصقر الى معترك الشرق والغرب واحداثهما المباغتة محللا كل حدث على حدة ، حتى اكتمل له بحث شائق في ثلاثين

ومائة من الصفحات ! وان تاريخا كتاريخ القومية العربية لا يتبلور في هذا الحيز المحدود الا لدى يراع مثقف مجيد! اذ ان موهبة الاستاذ صديق شيبوب ترجع في بعض مميزاتها الى جودة الانتخاب ! فاذا كثرت لديه الحقائق اختار من بينها ما يغني عن غيره ثم لا يغني عنه سواه ! اعرف لديه هذه الجودة الصائبة في اكثر ما طالعته من آثاره بل اذكر اني قرات فيكتابه «شخصياتعربية» دراسته النفسية لرفاعة الطهطاوي فادهشني ان اجد ما استشهد به من رحلته الى باريس هو انفس ما كتب رفاعة ، وقد رجعت الى الرحلة ظانا ان بها الكثير من امثال ما قدم صديق ! ولكني وجدت الكاتب قدم احسن ما قرأ والطفه واغربه ! فتأكد لدي ما عهدته فيه من براعة الاختيار .

* * *

هاجر شيبوب من اللاذقية الى الاسكندرية منذ اكثر من خمسين عاما ، وكان اخوه الشاعر الكبير خليل شيبوب قد سبقه اليها من عامين ، فارتضياها دار اقامة وانصرفا الى رسالتهما الادبية في شغف وافتنان ، وكان كلا الاديبين نهم القراءة متيقظ الاحساس مشبوب العاطفة ، وله من شبابه المتطلع ، وآماله البعيدة معين على السبح الشاق في خضم الثقافة والفنون ، واذكر أن صديقي الاستاذ الكبير نقولا يوسف قد تحدث عن نشأتهما الاولى بافاضة في عدد ابريل سنة ١٩٦١ من مجلة الاديب ، وكان مما ذكر الصديق العزيز ان خليل مطران قد صادق الاخوين صداقة دائمة ، واذكر الآن ان اثر مطران في خليل يرجع بالفنم على فنه الشعري ، اما اثره في صديق فيرجع الى سلوكه الادبي اذ ان في طباع الاستاذ صديق شيبوب كثيرا من طباع مطران فقد اخذ عنه حلمه البعيد ، وسماحته المفرطة ، وايثاره البالغ ، لقد اشرف على تحرير الصحيفة الادبية بجريدة البصير قرابة اربعين عاما ، فرعى نابتة الادب رعاية رحيمة ، يقدم آثارهم في تقدير ، ويصحح اخطاءهم في خفاء ، ويعينهم بالمصادر والمراجع في كرم ، ثم اخذ على عاتقه ان يقول كلمة الترحيب في كل كتاب اسكندري تخرجه المطبعة ، فاذا كان لديه نقد ما ستره في لباقة واشار اليه اشارة الذكي اللماح في مقاله النقدي ، اما حين يخلو بالكاتب فيصارحه باخطائه في تودد ومجاملة ويرسم له وجوه الاصلاح فيما لو سمحت الظروف بطبعة ثانية للكتاب ، وقد عرف عن صديق تخصصه في عرض الكتب الحديثة فجعل مؤلفو العربية في شتى الاقطار يتوددون اليه باهداء مؤلفاتهم ليتحدث عنها ، حتى انك لو احصيت ما خص به الناقد المكتبة الحديثة من مقالات لوجدت ما يملأ مجلدات ذات اجزاء في مدى متطاول يبلغ الاربعين من الاعوام ! ولو لم يكن لصديق غير هذا الجهد الناقد المرحب لكان استاذ كل اديب اخرجته الاسكندرية منذ اربعين عاما ، ولكن جهاده الادبي اوسع من ان يقف عند لون معين من الكتابة والتعليق .

وظاهرة غريبة يلحظها دارس شيبوب ، فقد كان لا ينشر آثاره المتقاطرة في غير الصحف الاسكندرية وحدها ، ولكن جميع ادباء العربية عرفوه عن غير هذه الصحف الاقليمية ! اذ دأبت امهات الصحف الادبية على نقل آثاره الرائعة في صفحاتها الذائعة ! اذكر في اول مجلس حظيت به مع الاستاذ منذ ثلاثة اعوام اني حدثته عن مقالاته عن فليكس فارس في المقتطف وعن بودلير وفي المجلة الجديدة وعن شعاب قلب بالثقافة وعن محي الدين بن عربي بالرسالة وعن اسماعيل ادهم بالحديث السورية وعن عشرات من امثال هذه الآثار الشهيرة ، فتعجب الاستاذ وذكر انه يسمع ذلك لاول مرة مني لانه كتب هذه المقالات جميعها فيجريدة البصير ونقلها الناقلون دون ان يعلم !! هذا غير احاديثه النقدية عن الكتب الجديدة فقد دأب مؤلفو الكتب ان ينسخوا صورا منها وان يبعثوا بها الى الصحف السيارة ممهورة باسم صديق والكاتب لا يعلم شيئاً عن مقالاته التي تنهمر هنا وهناك ! والغرابة في هذه الظاهرة ان الكاتب الذي يحرص على عرض نتاجه في اقليم ضيق لم يستطع ان يتقيد برغبته اذ كانت قوة هذا الانتاج ودسامته اقوى من ان تنحصر في جدول الاسكندرية ، فشقت طريقها تلقائيا الى المحيط الكبير ! وهذا مما يطمئن ذوي الاصالة من الكتاب الى خلود آثارهم مهما وقفت دونها الحوائل ! ولك أن تعجب معي لجريدة تجارية اقليمية كالبصير يخصها كاتب هادف بمقال اسبوعي خصب ، فتصبح مرجعا ادبيا للقراء في العربية ، وتنال من الشهرة في المحيط الادبي ما تناله جريدة لامعة سيارة كالاهرام ! لك ان تقرأ كثيرا من البحوث الادبية لدينا لترى اسم هذه الجريدة مقرونا باسم صديق ! بل اني اذكر أن الاستاذ شيبوب قد كتب مقالا عن مطران بتاريخ ٥ يونيه سنة ١٩٢٥ بالبصير ، فما تحدث احد بعد ذلك عن مطران الا اشار اليه او اخذ منه دون ان يشير !! على ان هذا الناقد المثالي الذي تحدث عن مئات الكتب ، اصدر في السنتين الاخيرتين اربعة مؤلفات عن القومية العربية ومعارك الاسكندرية والعدوان الثلاثي والشخصيات العربية فنفذت من السوق لدن صدورها ، ولكن احدا من هؤلاء الذين غمرهم الاستاذ بالتحليل ، وقومهم بالنقد وهم اكثر من مائة لم يكتب عن كتاب واحد من روائع صديق ! فهل يكون العقوق في الحياة نصيبا مفروضا على ذوي السماحة الدمثة من امثال صديق ! او ان هؤلاء بشر لا يرتفعون الى مستوى رائدهم الكبير . وارى من اللائق ان استثني الاستاذ وديع فلسطين والاستاذ نبيل فرج حيث تحدثا عن كتب الاستاذ بما يجب وقد جاءت كلمة وديع فلسطين بجريدة وطني دون توقيع صريح، وتوالت كلمات نبيل في حيدة واخلاص .

* * *

لم يكن صديق مقيدا بمنهج خاص في مقالاته الاسبوعية بالبصير بل كانت المناسبة الطارئة كثيرا ما تحدد موضوعه،

فاذا كان احتفال كبير بذكرى عظيم من افذاذ الشرق والغرب جعل الاستاذ حديثه يدور حول المحتفل به ، واذا منحت جائزة عالمية لكاتب كبير خصه الاستاذ بالدراسة لعدة اسابيع، واذا مات كبير من ابطال العلم او السياسة او الفن انجذب الكاتب الى تحليل شخصيته وايضاح مواقفه ، واذا اخرجت المطبعة اثرا ذا بال تناوله محرر البصير بالتشريح والدراسة ، وله اذ ذاك عند النقد لمسات جيدة يدركها القارىء المستشف ، اذ ان ما ذكرناه عن تأثره بطباع مطران قد فرض عليه ان يكون لطيف التأتي لما يريد ، يتعرض مثلا الى دراسة جبهة الغيب لصديقه الراحل العزيز بشر فارس فيعرض مضمونها ، ويتحدث عن ابطالها كما صورهم بشر ، ويفيض في تحليل وقائعها ، ولكنه لا يتورط في الحكم على منزلتها الادبية ، وكأنه من وجهة نظره الخاصة لا يسلم بطريقة صديقه في التناول الادبي للقصة ، ولا ينسى ان يختم مقاله بقوله « ولقد فاتني التبسط في وصف اسلوب الدكتور بشر وشرح وسائله في تلمس البلاغة والشأو البعيد الذي يبلغه منها وفاتني ايضا ان ابين مقام هذه المسرحية بين مختلف انواع المسرحيات التي تتصل بالفكر وتعتمد على المعاني والاحاسيس اكثر مما تعتمد على تطور الحوادث والفجاءات واذا كان المجال لم يتسع لجميع هذا فان القارىء لا شك سيتبينه عندما يطالع المسرحية » .

لباقة حصيفة من صديق بلا شك ! فقد احتاط لنفسه ولم يشأ ان يدعو مع صديقه الى منهج لا يرتاح اليه ، وليست صداقته لبشر التي حالت دون تورطه ولكنها طبيعة اخلاقه مع الصديق وغير الصديق !

لقد تحدث مثلا بمناسبة مهرجان الشاعر اللبناني بشارة الخوري عن شاعرية الاخطل محللا واصفا ، وقد اخذ عليه تكرار معانيه في قصائده ولكن طبيعة اخلاق الكاتب لم تشأ ان تكشف اللثام عن هذا التكرار في سفور فاضح ، وانما اشار اليه اشارة بعيدة حين قال :

«نشأ بشارة الخوري شاعرا مجددا في اسلوبه واحاسيسه وخياله ، يعالج في شعره موضوعات لم يعرض لها سوى القلائل فتقرأ له مثل قصيدة هند وامها حين تشكو هند ما احست به اذ قبلها الضحى وضمها الدجى فحباها من شعره خصلتين والقى على جسمها نجمتين ، وكحل من ذائب لونه عينيها ، ومد الروض يده الى صدرها واعطاه رمانتين ، وقدم لها الروض وردتين ، ولعل الوصف على هذه الطريقة اعجب الشاعر فاستعاده ببعض التعديل في قصيدته من مآسي الحرب اذ وصف كذلك كيف اهدت المها الى مي بطلة القصيدة المقلتين والعنق وكسا الروض بالورود وجنتيها ورمى في صدرها رمانتين واختار الليل المقام في شعرها وهام بها الفجر حتى اضحى درة في ثغرها » .

هذا الحياء الادبي نبيل ومؤثر ، نبيل لانه يصور نفسا حساسة يسوءها ان يعلم احد عنها سوءا فيما تهدف اليه فهي تبالغ في التهدئة والتلطف حتى تصل الى هدفها النقدي دون ان تغضب الحق او تسيء الى احد تحت ستار الاخلاص للفن ، ومؤثر لانه مع تلطفه الهادىء قد بلغ مبلغ النقد الثائر ، وترك للكاتب ان يرضي ذمته فيعلق رايه ولكن في همس واضح له حرارة العتاب ورقة الحنان !

عرض الاستاذ شيبوب ذات مرة لكتاب صديقه الاديب الكبير الاستاذ محمد خلف الله احمد عن معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها ، فسجل ما ارتآه من مميزاته الكثيرة ولكنه لحظ ـ صادقا ـ ان المؤلف قد اقتصر في بحثه بالفصول الثلاثة الاولى على الكتاب المصريين وحدهم دون السوريين واللبنانيين مثلا ! وهي ملحوظة موضوعية لان تطور اللغة في هذا القرن قد تفاعل بمجهود الاقطار الثلاثة وغيرها مجتمعات ! ولكن الاستاذ صديق يلتمس العذر للاستاذ خلف الله بأن ذلك يتمشى مع العنوان الفرعي لكتابة مصر في القرن التاسع عشر ! وهو التماس قد ينقضه ان العنوان الفرعي نفسه يصبح موضع المؤاخذة لان الحديث عن تطور اللغة ينبغي الا يقف عند مصر وحدها!

وكثير ممن يكتبون المقالات الادبية بالصحف اليومية يلجأون الى المطروق من القول ، الذائع المصدر ، السهل المتناول بحجة انهم يكتبون للقارىء العادي فيقدمون له وجبة سهلة تشبع جوعه المحروم ! ولو فعل الاستاذ صديق ما يفعلونه ما كان له أثره البعيد ، لانه اخذ فنه مأخذ الجد الصارم فكان يعكف على القراءة دون ملل حتى يستقيم له المبتكر الطريف من الحديث والدسم السمين من القول ، فاكثر قراء العربية مثلا لم يكونوا يعلمون شيئا عن الادب الفنلندي ، فانتهز الاستاذ صديق مناسبة الحرب العالمية الثانية حين هجمت روسيا على هذه الدويلة الصغيرة ، وكتب المقالات عن ادبها وملاحمها وشعرائها وتحدث مجيدا عن طبيعة المناخ الفنلندي واثره في تلوين الادب والفن والم بعهود الوثنية وادوار الطفولة لدى الامة الفنلندية وتحدث عن الاغاني والاناشيد الحماسية والملاحم الوطنية وضرب الامثلة بابيات من خوالد « لياس لونرو » وبعض روائع كاليفالا الاخاذة وقصائد « جوهان اوبترج » وغيرها فأتى القراء « بالغائب البعيد » ، على انه حين يتحدث عن « الحاضر القريب » يقدم طريفا غير مملول اذ يعدل به الى منحى مبتكر يستقيم اسلوبه استقامة تكسبه سمات الجدة والابتكار ومن امثلة ذلك مقالاته الرائعة عن البحتري بمناسبة مهرجانه ، فقد قدمت الشاعر الشهير في معرض جديد ، واستلهمت ما عرف من المصادر وما جهل ! والفنان الاصيل هو الذي ينفخ روحه في انتاجه ، فيكسبه نفاذا وتأثيرا لا يختلفان في موضوع دون موضوع .

وقد جرى الاستاذ اشواطا موفقة في مضمار القصة فارتضى النهج الواقعي ، ورسم البيئة المصرية في مشاهد زاهية كما ترجم عدة اقاصيص للمشاهير من اعلام هذا الفن ولخص قصصا اخرى كان آخر ما قرأته منها تلخيصه

الجميل لقصة « القديسون يذهبون الى الجحيم » ! وهو فيما يترجم او يلخص يعرض انماطا رائعة مشتهاة ، لا في باب القصة وحدها بل في الفصول العلمية الرصينة ، اذكر ان المستشرق الفرنسي الكبير ليفي بروفنسال قد قدم الى الاسكندرية سنة ١٩٤٧ وقام بالقاء عدة محاضرات عن تأثير الشعر الاندلسي في الشعر الاوروبي واشتاق قراء العربية الى الالمام بمضمونها فلخصها الاستاذ صديق تلخيصا مركزا بمجلة الكتاب المصرية اذ ذاك ، وقد طالعتها حين صدورها فخيل الي انها نبذ مختارة من نقاط كثيرة متفرعة واشتقت ان ارى النص الكامل حتى سمحت الايام بترجمة حرفية للمحاضرات نشرت في كتاب خاص بين سلسلة الالف كتاب مع فصول مماثلة لبروفنسال ، وقد ادهشني بعد مراجعة الدراسة ان الاستاذ صديق لم يترك شيئا فيما لخص رغم تركيزه ، وقد امتاز اسلوبه بسلاسة رائعة لا توجد في الترجمة الحديثة! هذه السلاسة العذبة لا يتخلى عنها الكاتب حتى ولو ترجم فصولا في الفلسفة والمنطق ، وما دمت اتحدث عن مترجماته العلمية ، فمن المناسب ان اشير الى ترجمته الجميلة لبحث ارنست رينان عن مقامات الحريري في فصلين كبيرين تقيد فيهما الاصل دون ان يحيد وان كنت اوثر للاستاذ ان يناقش الكاتب في بعض ما يشتط فيه من الاحكام حين يترجم عنه ، اذ ان ارنست رينان مثلا قد نعى في مقاله عن المقامات على المدرستين النحويتين في البصرة والكوفة اشتغالهما ببحوث عن الفعل والمصدر وتشعب آرائهما تشعبا متسعا في غير طائل ، وكان الاولى ان يتجه اختلافهما الى مسائل فلسفية هامة في الآراء والمعتقدات والكوائن ، وقد نسي رينان ان هذا اللون الفلسفي من البحث كان على اشده لدى علماء الكلام في العصر العباسي وترك من الدوي في الجدال والمناظرة ما سجلته كتب الفرق ومؤلفات اهل السنة وائمة الاعتزال حتى اوجد فلسفة قائمة بذاتها ، والاستاذ صديق يعرف ذلك جيدا وقد اشار اليه في ترجمته الوافية للجاحظ ، وكان الاولى في رأيي ان يعقب على مثل هذه الآراء المخطئة حين ينقلها الى العربية فينقذ من الخطأ من يأخذون كلام الاوروبيين عن الفكر العربي وكأنه جميعه حق صريح .

لقد احتفظت لدي بقصاصات كثيرة من مقالات البصير ، ومن بينها سلسلة ابحاث الاستاذ صديق عن القصة العربية فاستقام بين يدي من هذه الابحاث كتاب لطيف عن تاريخ القصة في الادب العربي بدأه الاستاذ بحديث دسم عن الاساطير الجاهلية ورواتها وابطالها ثم عن القصة في الشعر الاسلامي مستدلا بآثار عمر بن ابي ربيعة والحطيئة ، منتقلا الى الادب العباسي ليفيض في الحديث عن كليلة ودمنة ومقامات بديع الزمان والف ليلة وليلة ! وهكذا كونت هذه القصاصات كتاباً لطيف الحجم جزيل النفع يقع في حجم كتابه الشهير عن شاعر الالمان جيته وقد اصدرته دار المعارف منذ سنوات فسد فراغا للعربية ، واني لاتساءل لم لا يبحث الاستاذ في قصاصاته التي تملأ عدة صناديق كبيرة ليخرج لنا مجموعات مماثلة، فمجموعة للنقد ومجموعة للقصة ، ومجموعة للتراجم ومجموعة للاعلام حتى يعين الجيل الجديد على تتبع دراساته ! واذا كان قد آلى على نفسه ان يظلم آثاره البليغة فلماذا يظلم ذوي المعرفة من الدارسين وهم كثيرون ! هذا رجاء حار دفعني الى تحرير هذا المقال عسى ان يبلغ مسموع صديق فيستجيب .

الفيوم — **محمد رجب البيومي**

ادوار عطية

●

(في رثاء المجاهد العربي المغترب ادوار عطية فقد توفاه الله وهو يخطب على منبر جامعة اكسفورد مدافعا عن قضية العرب)

•

بالشعر ارثيك ام بالدمع ابكيكا
الشعر عيّ ودمعي ليس يكفيكا
نأيت تنشد حق العرب مغتربا
ما كان عن حقهم شيء يثنيكا
لبيت لما دعا الداعي لنصرتهم
بالامس ، واليوم قد لبيت داعيكا
قد خضت حربا لها الميدان متسع
من ارض لندن حتى ارض امريكا
سلاحك الحق فيها ليس يثلمه
غدر الحليف ولا بهتان شانيكا
كنت المجاهد في الميدان مندفعا
في قلبك الحق والايمان في فيكا
كنت السفير ايا ادوار في بلد
عز النصير به والله حاميكا
أعليت للعرب عند العرب غايتهم
واليوم نحن على الهامات نعليكا
تبكي اليراعة قلبا مؤمنا فطنا
نعاه للضاد والتاريخ ناعيكا
تبكي المنابر من كان الحبيب لها
وان تسل فدموع الصحب تنبيكا
يا اطيب الناس نفسا كيف نرثيكا
يا اكبر الناس قلبا كيف نفديكا
كانت حياتك مثل الطيب عابقة
وذي وفاتك من اسمى معانيكا

لندن — **فؤاد جبور حداد**

من « العروة الوثقى »

عصاها

ثريا ملحس

« امي امي امي
يا كل ضلع مني »
رياح تناديك امي
وسوط البروق
وقصف الرعود
ينادي : اامي
وطيف يغني لأمي
وهمسات غيث هطول
تصلي صلاة لامي
وضلعي كطير الحقول
مهيض الجناح
غدا في الصباح
غدا في المحارة
وحولي بقايا
بقايا القبور
هنا مشطها العاج راقد
وفسطانها الحلو جامد
واشجار بيتي خريف
وأوراق زهري رفيف
واشياؤها في ذهول
كأعمى يدق العصا في نحول
احس ..
دما قد سرى في دمائي
رؤى قد سعت في سمائي
وشيئا جديدا مديدا
وقفت ..
امام المرايا لعلي أرى وجه أمي
فوجهي كأمي
وشعري حرير كأمي سكوب
ولون لها مثل لوني شحوب
عصاها ستبقى عصاها
وأمي ستفنى وتفنى رؤاها
آ ربي لماذا خلقنا ، لنشقى
ويشقى سوانا قضاء بأم ؟
اربي أتبقى العصا دون امي
تحن ..
تئن ..
تدور
حوال الديار
وفي كل دار
لها قلب نار

*

فيا طيب امي
ويا اذن أمي
ويا عين أمي
ويا قلبها في الديار

*

ويحنو علينا صداها
تفيق الدوالي دوالي القفار
تمر الرؤى كالظلال
صقيع صقيع الليالي
امان كمر الخيال
وقفقاسيا في ارتحال
كأنشودة في الاعالي
ونسقي لنا في ثراها
ضلوعا كذر الرمال

*

« امي أمي أمي
يا كل ضلع مني »
يناديك صوت هدير
وهمس خفيت قدير
احييك امي بحرفي
وحرفي كنوزي ومالي
والوي بحبي حروفي
زهورا وزرعا تعالى
لماذا سريعا تلاشى
وصوت حبيب تلاشى
وكان الفقير
يدق العصا كل يوم
على باب أمي
فلا صوت فقر ولا صوت امي

*

« أمي أمي أمي
يا كل ضلع مني »
صدى في حنايا فؤادي
ربى في عروقي وزادي
وتغفو قضايا عذابي
على ركعة في الرحاب
على كتف امي
وفي قلبها الف هم
لبعضي وكلي
متى نعرف السر سر الوجود
عرفنا القضاء وغب الخلود
والا ستبقى عصاها
وأمي تموت
وتبقى حروف
وأخرى تموت
كأمي تموت
ويبقى لنا كل لون
وفينا سيبقى لامي صداها

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

*

الميادين الفكرية الثلاثة الكبرى التي شغلت العقل البشري منذ القدم هي الدين والفلسفة والعلم . وكان الدين يتفاعل مع الفلسفة والفلسفة تتفاعل مع الدين ، كما جرى في علم الكلام في القرون الوسطى عند العرب وعند الاوروبيين ، ولو ان العرب تمكنوا من شق طريق فلسفي منفصل عن الدين اكثر انفصالا من طريق الفلاسفة المسيحيين . وتفاعلت الفلسفة مع العلم كما تفاعل العلم مع الفلسفة ، ولو ان العلم تفرد في بحثه عن كيفية صيرورة الظواهر وتفردت الفلسفة في بحثها عن اسباب هذه الصيرورة . ولكن هذا التفاعل اتخذ صورة النزاع والصدام ، وخرج العلم من كل ذلك في وضع ناجح واستمر في تقدمه حتى وصل الى ما هو عليه الآن . وظلت الفلسفة تتخبط في سيرها ، ولم يتوفق الفلاسفة حتى الآن في الوصل الى حل يرضى عنه الفلاسفة انفسهم ، بل ان النظريات الفلسفية تظهر مدة ثم تزول ، مما دعا الى الحيرة والارتباط وادى الى افلاس الفلسفة عموما وتشعب مذاهبها . وقد تطورت الفلسفة كتطور الانسان من طفولته الى شبابه والى رجوليته ، حتى اذا وصلت الى آخر اطوارها اضاعت طريقها وهامت في مجاهل ومضال عديدة . فاول ما يدرك الانسان في حياته وجود فرق بين عالمه الداخلي وبين العالم الخارجي . فهو يدرس هذا العالم الخارجي ليتوصل الى حقيقته وماهيته، وهذا ما فعله الفلاسفة القدماء امثال « تاليس » و « هراكليتس » و « ديموقريتس » . ثم ينظر هل الصورة التي تتكون في الذهن عن العالم الخارجي أو المخلوقات هي صورة حقيقية ام هي صورة غير حقيقية . وهنا مبدا البحث في العقل وكيف يعمل ، وفي التفكير والمحاكمات العقلية ومبلغ الاعتماد عليها في معرفة حقيقة هذا الكون. فالفيلسوف الانكليزي لوك يقول انه لا يوجد شيء في العقل لم يكن احساسا في الاصل . ويقول « باركلي » ان الاشياء لا وجود لها في الحقيقة وانما وجودها في الذهن فقط ، كما في رأي فرقة الكيسانية من الفرق الاسلامية ، وابعد « هيوم » في الرأي فقال ان المادة او العقل شيء لا تمكن معرفته على وجه التحقيق ، وانما تمكن معرفته عن طريق خواصه فقط . اما ذاتية هذا الشيء فامر غير معروف . وهذا رأي « كانت » ايضا . وبعضهم قال ان المادة شيء موجود حقيقة وهم الماديون وبعضهم الآخر تمسك بالفكرة الاخرى وهي ان العقل هو الذي يوجد المادة، وجاء «هيكل» الالماني فقال ان الحقيقة هي الفكر . وانقسم الفلاسفة الى مؤمن بنظرية الفكر بانه اصل الحقيقة والى مؤمن بوجود المادة منفصلة عن الفكر .

فالفلاسفة منذ القدم ، وخصوصا بعد « ديكارت » الفرنسي ، ما زالوا يبحثون في ماهية الاشياء وفي حقيقة هذا العالم الخارجي . فافلاطون يرى ان الاشياء في عالمنا هذا ان هي الا صور مضللة عن امثلة كاملة توجد في العالم الروحي ، وهذه الامثلة هي الاشياء الحقيقية . وقال « كانت » أن كل انسان في هذا العالم ، سواء كان فلاحا او تاجرا او استاذا ، هو صورة غير كاملة عن المثال الانساني، وهذا المثال الانساني الكامل موجود في (اللوح المحفوظ) او ، على رأيهم ، في الفكر أو العقل السماوي . ولايضاح ذلك نضرب مثلا استعمل شبيها له الفيلسوف الفرنسي الحديث جان بول سارتر . فان النجار اذا اراد ان يصنع كرسيا ، فاول ما يكون لديه صورة ذهنية بشكل هذا الكرسي . فالمثال موجود في الذهن قبل ان يوجد الكرسي وكذلك المخلوقات ، فان امثلتها موجودة في الذهن الرباني، او هي موجودة ، في رأي بعض الفلاسفة ، في ذهن الانسان . وعلى كل فان الفلاسفة يرون ان المثال الاصلي سابق للصورة المنسوخة عنه ، او بمعنى آخر ان صورة الكرسي الاساسية موجودة قبل صورته الفعلية ، بمعنى أن حقيقة الشيء سابقة لوجوده . فالحقيقة مقدمة على الوجود .

وهذا ما يعارض فيه الوجوديون امثال سارتر وهايدكر من الوجوديين الملحدين . ونقول (الملحدين) هنا لان الوجوديين في العالم على نوعين : الوجوديون الملحدون والوجوديون المؤمنون ومنهم «ياسبرز» الالماني و «مارسل» الفرنسي . وجميعهم مدينون باكبر قسط للفيلسوف الدانيماركي كيركيغور . واساس نظرية « سارتر » ، تحت تأثير « هايدكر » الالماني ، هو ان الوجود مقدم على الماهية او الحقيقة ، لان الانسان يوجد اولا في هذا العالم ثم يتولى امر نفسه بنفسه فيخلق من نفسه ما يريد ، وليس لصورة مثالية في العالم السماوي او في الذهن الرباني اي تأثير في ذلك ، لان هذا العالم او هذا الذهن غير موجود. والمبدا الاول في النظرية الوجودية هو ان الانسان لا يكون شيئا في هذا العالم سوى الشيء الذي يصنعه الانسان من نفسه . فالانسان هو الذي يجعل نفسه على الصورة التي يريدها ، ولذلك فهو مسئول امام نفسه وامام غيره من بني الانسان ، لانه مضطر الى اتخاذ قراره بنفسه ، وفي هذا ما فيه من عذاب ومضض . فكأن الانسان في عراك دائم ومشقة وجدانية مستمرة، مما ينطبق على قول القرآن الكريم : « خلق الانسان في كبد » . وفوق ذلك ، فان الانسان يشعر بالوحدة في هذا العالم وبالوحشة في علاقاته بغيره . وشعوره بالوحدة وبالوحشة في راي الوجوديين ناشيء عن عدم وجود معالم يهتدي بها في مجاهل هذا

العالم ، بعد ان فقد الانسان ثقته بالعقل وبالفلسفة وبالعلم، كما فصلنا ذلك في مقال سابق . فالعالم الخارجي عبارة عن لاشيء ، والانسان في معيشته يلتقي بعالم اللاشيئية ، فليس له الا ان يهتم بنفسه وكفى . وفيما يلي قطعة مأخوذة من كتابات « كيركيفور » تكشف عن حقيقة هذه الوحشة او الغربة في المجتمع :

« يغرز المرء اصبعه في التربة ليعرف من رائحتها في اي بلاد هو ، وانا اغرز اصبعي في الوجود ، فلا اشم منه رائحة . فاين انا ؟ ومن انا ؟ وكيف جئت هنا ؟ وما هو هذا الشيء الذي يسمى بالعالم ؟ وما معنى هذا العالم ؟ ومن هو الذي اغواني حتى وقعت في هذا الشيء ، ثم تركني هناك ؟ كيف جئت الى العالم ؟ لماذا لم استشر ، ولم اعرف بعاداته وتصرفاته ، بل زججت بين الصفوف كما لو انني اشتريت من مختطف ، من تاجر بالنفوس ؟ كيف حصلت على هذا الاهتمام بهذه المهمة الكبيرة التي يسمونها الحقيقة؟ لماذا ينبغي ان يكون لي اهتمام بها ؟ اليست هي مهمة خاصة ؟ واذا كنت مرغما على المشاركة فيها ، فاين الدليل الموجه ؟ الى اين اتوجه بشكواي ؟ حقا ان الوجود نقاش . وهل لي ان ارجو بان تؤخذ وجهة نظري بعين الاعتبار ؟ اذا كان على الانسان ان يأخذ العالم كما هو ، افليس من الافضل ان لا يعرف الانسان هذا العالم ما هو ؟ »

هذا كله دليل على الشعور بأن الانسان لم يعد له ما يثق به ويعتمد عليه ، الا نفسه ، يهتم بها ويعنى بها . هذه الحالة هي التي وصفها بعضهم بفلسفة الازمة او بأزمة الفلسفة . وهي من اولها الى آخرها حملة على كل سلطة : سلطة الدين وسلطة العلم وسلطة العقل لان الانسان في تاريخه عدو كل سلطة ، يريد هدمها للتحرر منها . فقد بدات الفلسفة اليونانية بتفحص العالم لمعرفة حقيقته ، ثم اخذت تبحث في الانسان وكيف يجب ان يعيش في المجتمع ، وانتهت بالشك ، فاهتمت بالانسان بمفرده ، منفصلا عن مجتمعه ، واصبحت الفلسفة عبارة عن تلاعب في الكلمات على ايدي السوفسطائيين وامثالهم . وبدات الفلسفة في الغرب بتحرر الانسان جسمانيا من سلطة الغير ، ثم عقليا من سلطة التقاليد والنظم الدينية ، وارتفع شأن العقل في القرن السابع عشر ، الى ان جاء « كانت » وقوض اركان سلطة العقل المجرد في القرن الثامن عشر ، مما اضطر الفلاسفة الى البحث عن سلطة جديدة ، فانشق الفلاسفة في القرن التاسع عشر بين الفلاسفة المثاليين المؤمنين بسلطة الفكر والمعنويات وبين الفلاسفة اليقينيين امثال « كونت » الفرنسي الذين لا يؤمنون الا بما يصدق به الحس ويقع في مجال التجربة العملية ، وتنكروا للفكر المجرد وضربوا صفحا عن مبادىء الاخلاق والدين وجميع ما هو من قبيل التصديقات النظرية والالهامية . ومعنى ذلك ان الانسان ابتعد عن الروحيات ، واصبحت حياته مادية ، وعاد الى الطبيعة من جديد . ولكن المادة والحياة المادية والعلم ايضا خيبت الظن ، واضعفت ثقة الانسان بهذه السلطة ايضا . فاصبح الانسان في حيرة من امره ، وفي هذه الحيرة ظهرت الوجودية . في هذه الازمة يجد الانسان نفسه تحت عبء باهظ مرهق ، وفي فوضى فكرية ونفسانية وروحية .

فيباديء الامر، كان الفلاسفة الوجوديون يؤمنون بالوجودية الدينية امثال « كيركيفور » و « هايدكر » و « ياسبرز » واتباعهم امثال «ماريتان» و «برادیف» و «مارسل» . ثم انشق عن هؤلاء (هايدكر) وتبعه (سارتر) و (كامو) و (باتاي) و(بلانشو) والوجوديون الفرنسيونوعلى رأسهم سارتر يمثلون الوجوديين الملحدين . ولكنهم جميعاً من مؤمنين وملحدين تابعون للفلسفة الاصلية التي دعا اليها كيركيفور الدانماركي وهي ان الحقيقة ليست حقيقة خارجية كما يدعي اصحاب المذهب اليقيني ولا هي حقيقة يقررها الفكر المجرد ، وانما هي حقيقة تختلف باختلاف كل شخص ، ولا يمكن لحقيقتي انا ان تكون مطابقة لحقيقتك انت او لحقيقة غيرك . هذه هي الفكرة الفلسفية في الوجودية . وهي ، كما يرى القارىء الكريم ، فكرة تجزىء المجتمع الى ذرات صغيرة تدور كل واحدة منها في فلك او مجال خاص بها . وهي شبيهة بنظرية « لايبنس » القائلة بان العالم مكون من جزيئات روحية بسيطة (وسمى كل واحد منها موناد) يستقل كل واحد منها عن الآخر ولا يؤثر واحد في الآخر . والشبه بين نظرية الوجوديين وهذه النظرية ان الجزيء في هذا العالم يمثل الشخص القائم بنفسه والمستقل عن غيره والحر في حياته وفي تقرير مصيره . والوجوديون يختلفون عن « ديكارت » الفرنسي الذي قال : «انا افكر فانا موجود » ، بانهم يقولون : «انا موجود فانا انا» واخذ « هسرل » و « هايدكر » الالمانيان نظرية « كيركيفور » في اختلاف الحقيقة وتعددها بحسب الشخص وتوسعا بها ، ولا سيما بعد الحرب العالمية الاولى حينما غلبت المانيا على امرها ، ثم اخذ « سارتر » الفكرة عن « هايدكر » وتوسع بها هو ايضاً ، وخصوصا في الحرب العالمية الثانية حينما غلبت فرنسا على امرها . ومن هنا جاءت التهمة الموجهة الى الوجودية بانها فلسفة الهزيمة والعدم والتشاؤم وفلسفة الانحطاط والفوضى وهي مناقضة للماركسية من حيث ان الماركسية تقوم على تماسك المجتمع في حين ان الوجودية تقوم على تجزئته . ومع ذلك فقد لاقت الوجودية مرتعا خصبا في بولنده مثلا في المدة بين ١٩٥٦ و ١٩٥٧ حينما اطلع المفكرون هناك على الانحرافات في زعامةالحزب الشيوعي واخذوا يفقدون الثقة في مبادىء الحزب وفلسفته الاجتماعية ، فاصابهم ما اصاب المفكرين الاوروبيينالآخرين فانتشرت الوجودية بين صفوف الشيوعيين في بولندا ، ووجدوا فيها ملجأ . هذه الحالة التي ينتقل فيها الانسان من التفكير في العالم اجمع او في المجتمع اجمع الى التفكير بالفرد ومصيره شبيهة بالحالة التي نشأت في الفلسفة

اليونانية في ايام سقراط . فان الفلسفة اليونانية قبل سقراط كانت منصرفة الى معرفة كنه هذا العالم والوصول من هذا الكنه الى تعليل الظواهر الطبيعية والبشرية ، ثم انصرفت على يد سقراط الى الاهتمام بالفرد وحده وفي وجوده وكيانه. ثم ان قيام الاسكندر المكدوني وقضاءه على استقلال الدويلات اليونانية احدث في النفوس شيئا كثيرا من خيبة الامل وروح النقمة والسخط ، وانحطت معاني الولاء للمجتمع او للدولة وتسربت الى النفوس نفرة من الاشتراك في السياسة او في المشروعات العامة وقام الفلاسفة او المفكرون الرواقيون يدعون الى الانسلاخ عن المجتمع واهتمام كل انسان بنفسه . ودعا الابيقوريون الى طلب اللذة والسرور في الحياة والتحلل من جميع العلاقات الاجتماعية . ولكن الفيلسوف « بيرو » وجماعته من الشكاكين المنكرين اتخذوا اتجاها تطرفيا ، وقالوا ان الاشياء في هذه الدنيا قد تكون في حقيقتها خلاف ما نراه ونشعر به عن طريق العقل ، ومن يدرينا ان النسبة بين التصوير العقلي والحقيقة نسبة ثابتة في جميع الازمان والاحوال ؟ فالحواس مضللة لنا ، كالاحلام التي نراها في المنام وليس لها حقيقة . وبهذا التشكك والتساؤل ، اثار الشكاكون مشكلات لا تزال تطغي على الفلسفة منذ الفي سنة حتى الآن . واشد من ذلك ، ان هؤلاء انكروا وجود شيء نسميه خبرة سابقة ، وقالوا ان الانسان يلد في كل لحظة من حياته ، وان العالم ، كما قال « هيراكليتس » من قبل ، في حالة مد وجزر يتغير في كل آونة ، وان الاشياء جميعها هي في حالة الصيرورة دائما . وهذه فكرة غريبة ، اذا اعتبرنا انها صدرت في ذلك الزمن القديم . ولكن الظروف السائدة في ذلك العهد ، مع ما احدثته من تفسخ في النظام الاجتماعي وفقدان الثقة بالمفهومات والاعتبارات العامة ، هي التي اوحت بهذه الافكار التشاؤمية القريبة الشبه بافكار الوجوديين في المانيا اولا وفي فرنسا ثانيا . ولعل تشاؤم المعري في عهده ذاك كان مبعثه من مثل هذا الباب . ومعظم الاتجاه في ذلك اتجاه نحو الفرد ومصيره ، وهو الاتجاه الصحيح في راي الوجوديين ، فان هايدكر ينتقد المجتمع عموما لانه يغفل امركينونة الفرد . ويرى سارتر ان الفلاسفة يهتمون بماهية الاشياء لتعليل هذا العالم ولا يهتمون بالوجود ، وهو يدعو ، خلافا لهم ، الى الوجود اولا لان من الوجود تنجم الحقيقة ومنه ينشأ كيان الانسان ومصيره .

فاحد مبادىء الوجودية هو تقديم الوجود على الماهية . والثاني اختلاف الحقيقة باختلاف الشخص . والثالث ان الانسان حر مسئول في عالم اللاشيئية هذا .

لندن — حسن الكرمي

اغنية للمطر

القصيدة الرابعة

•

لو عدت يا مطر
لاهتزت الارض الخبيئة الثمر
وفجرت كنوزها العيون والشجر .
لارتوت الجذور
وامتلات عصير
لفتحت براعم الزهور
وارتعشت في كل عرق نبضة الحياة .

لو عدت يا مطر
لكنت قد خرجت لك
لخضت بحر الليل كيما انظرك
وشاح نومي مسدل
وشعري الطويل ملقى للرياح
وخطوتي على اديم الارض تسبق المدى
عريانة تجس صدر الارض لا تكاد
ثم تطير في الفضاء الرحب تلقى طلعتك !

لكنت قد اسلمت لك ...
في مهمه البرية الفسيح حيث لا حدود
اسلمت لك ...
تغرقني فيوضك السخية العطاء
تضمني يداك
يرتجف الندى نداك
على شفاه شاقها العطش !

رفعت وجهي ...
نشوتي صلاة
ولحنك المرتعش الايقاع
يطير بي فوق الغيوم
يحملني الى مشارف النجوم
يسلمني الدنى
مرابعا ، مشارفا ، مدى
لو عدت يا مطر
لو عدت ....
لو تعود !

القاهرة — ملك عبد العزيز



وديع فلسطين

فواكه رجعية للشاعر الياس فرحات

بقلم وديع فلسطين

تعوذت بالله من شيطان الغرور حين رغب الي صديقي الشاعر الياس فرحات في ان اقدم لديوانه « فواكه رجعية » *. فمقامي بين الادباء في الملأ الأدنى، وصلتي بالشعر صلة تطفل، والياس فرحات غني بمجده الادبي وشاعريته العريقة عن ان يقال لنكرة مثلي: قم قدمه الى جمهرة القارئين في مشارق الضاد ومغاربها. ولهذا اعتذرت بغير طول تفكير من عدم تلبية هذا الرجاء، على اعتزازي بالعاطفة التي املته، وتقديري للوداد الذي غض الطرف عن نقائص في لا يحصيها عد. ولكن الياس فرحات غالى في اصراره واشتد قائلا ان كتابة المقدمة كالقضاء والقدر، لا مهرب منهما ولا عليهما احتيال. فصدعت لرغبته بعد مراجعة نفسي، على ادراك بان من التفريط في حق الادب والضاد الا اقبل هذا التحدي الحبيب، فأضم صوتي الضعيف الى اصوات غيري في اكبار هذا الشاعر الباذخ الشاعرية، لعلي بذلك ارد اليه قطرة من فيض افضاله على الضاد المتناهية القداسة.

ولقد نازعت صديقي الياس فرحات في عنوان الديوان من حيث انه وقع في اذني موقعا غير طيب. واقترحت عليه تسميات اخرى لهذا الوليد الجديد مثل « فاكهة الماضي » او « فاكهة الامس ». واستنجدت بصديقنا المشترك الشاعر جورج صيدح فاقترح بدوره تسميات منها « بعد الاوان » و « حصائد الشتاء » و «بعد الموسم» و « جعبة الراعي » و « فاكهة الشبعان » ولكن الياس فرحات استمسك « بالرجعية » في العنوان، وقانا الله منها في الفاكهة وفي غيرها!

والقارىء العربي يعرف الياس فرحات شاعرا جهيرا، صوته عال في ترديد الاماني القومية وانشاد اغاني العروبة العذاب، كما يعرفه رجل حكمة تجلت في رباعياته الفريدة، فكان في هذا متنبي اليوم. ولكنه لم يعرف الياس فرحات شاعر غزل وتشبيب، الا في فلتات هنا وشطحات هناك، ذلك بانه قد طوى اغلب هذا الشعر اشفاقا على شيخوخته من ناحية، وخشية ان يدرجه نقاد الادب بين شعراء العشق من ناحية اخرى، وهو الحريص على الا يكون مكانه الا بين شعراء الحماسة العربية الفحول، بيد ان الشاعر الياس فرحات وقد عاش كل عمره صريح الوجه شجاع الرأي، قرر ان يظهر امام الناس بمظهره الصحيح، لا يكتم عنهم خاطرة عبرت بذهنه، ولا يحجب عاطفة جاشت في صدره. واذا كان في ماضيه لم يستقبح ان يعترف قائلا:

ونشرب مما تشرب الخيل تارة   وطورا تعاف الخيل ما نحن نشرب

فلا يصح له ان يخجل اليوم وهو يطالع القراء بغزلياته في هند والسمراء وخمرية اللمى والرضاب واخواتهن الفارعات البارعات الفازيات الفاتحات، متشوقا في آخر الديوان الى الموت غرقا في بحر كل لجه من الغيد الاماليد الحسان، وهي امنية لا نملك الا ان نجاريه فيها مدركين انها بعيدة المنال حتى في دنيا الخيال الشاعري.

فهذا الديوان اذن ضرب من ضروب الاعترافات التي اذ تضيق بها الصدور تعالن بها بعد طول كتمان. وسيان عندنا ان يكون هذا الشعر من وحي الخيال المنجاب او من تجارب الواقع المر، فليس الشاعر مطالبا بان يقدم للقاريء تقريرا معززا بالاسانيد الدالةعلى صدقه، والقاريء موكل بالديوان، يستخلص منه ما يشاء، ويستنتج ما يطيب له، وحسب الشاعر انه صب مكنونات صدره في ابيات قصيده، وحسبه انه استودع المطبعة هذا الشعر الرقيق الرشيق الذي حفظت قدرا غير يسير منه بعد المطالعة الاولى وصفقت للشاعر بقلبي اعجابا واستزادة.

فالياس فرحات لم يولد في دنيا الشعر شيخا انطوت اشرعته وتبلدت عاطفته وماتت احاسيسه الا من وطنية متأججة وقومية صارخة، وانما مر هذا الشاعر على مراتع الشباب وصبواته، فأحب كما نحب، وعشق كما تعشق غيره من الناس، وعرف مباهج الحياة كأي صب مدنف، وغزا غزوات صرعاها غير قلة. لقد نسي « خصلة الشعر » وصاحبتها بعدما خانت العهد ونكثت الوعد، وراح يحدثنا عن « السمراء » آنا، و « هند » آنا آخر، وعن مغامراته

*** يصدر للشاعر المهجري الكبير الاستاذ الياس فرحات قريبا ديوان جديد عنوانه « فواكه رجعية » وقد رغب الى صديقه وديع فلسطين في كتابة مقدمة لهذا الديوان فكتب هذه الصفحات**

بين اللائي عرفن قدره واللائي جهلن محله ، وعن معارك الحب التي ورثها من آدم «فلا نحن القينا السلاح ولا هن»، وعن جولاته في الغاب وتحت وابل المطر وعلى الشاطىء وفي البحيرة ... و ..و ، فلا يسع القارىء الا ان يتحسر معه على ايام الشباب الموليات :

سقى الله ايام الشباب فانها ... اذا ذكرت اعمارنا كانت العمرا
عرفنا بها لب الحياة ولم نعش ... الى يومنا الا لكي نعرف القشرا
يعود ربيع الدهر في العام مرة ... ولكن ربيعي لن يعود وقد مرا

ولقد كان صديقي واستاذي الحبيب الشاعر العظيم خليل مطران يؤمن بالتوحيد في الحب فيقول :

آمنت ما اشركت فيك ولم يكن لي في الهوى دين سوى التوحيد

اما الياس فرحات ، فيلوح من ديوانه هذا انه طاعن في الشرك مصر عليه غير مستغفر منه ، لا تنفع فيه هداية ولا يجدي معه نصح ولا وعيد . ولكنه ، وهو الشاعر المفطور على رقيق الشعر ، يحسن التعليل والتأويل ، فيبعد عنه الشبهات بلطيف تعبيره وجميل تخريجه ، فيقول مخاطبا فتاته التي ظنت به الظنون بعدما سمعته يسمي ليلى ولبنى ودعدا واترابهن :

لا تظني بي الظنون اذا كنت ... اسمي ليلى ولبنى ودعدا
انا من يعرض الزجاج ويخفي ... الماس ، ان اللصوص كالرمل عدا
انت قصدي دون الانام ولكني ... اسمي سواك في الشعر عمدا
انت قصدي ، وكل اسماء حواء ... ثياب لاسم حبيب مفدى

حتى اذا ما وصلنا الى خاتمة الديوان رايناه مجليا في الشرك ، مستعذبا الموت مع بنات حواء جميعا في سان باولو :

سان باولو في ساحاتها ... وعلى السطوح وفي الطريق
بحر من الغادات من لي ... ان اموت به غريق

ولكن يلوح ان واحدة من بنات حواء لم تستأثر باهتمام الياس فرحات مثل اثيرته « هند » التي قال فيها اجمل شعره الغزلي ، وغناها اطرب الاغنيات ، ففيها يقول :

تمنيت ايام الشباب لانني ... تذكرت هندا والبشاشة والطهرا
ولو رجعت يا هند دونك عفتها ... واشبعتها شتما واوسعتها هجرا
فان شبابا لست فيه رفيقة ... لصبك، احلى منه شيخوخةعسرى

وقال فيها :

يا هند يا ذات الملاحة والذكاء الاوحد
هنئت بالعيد السعيد وانت اهل الاسعد
لو لم يكن خوف الوشاة الراصدين مقيدي
لجهرت بالحب العميق الكامن المتجدد
وطرقت بابك حاملا قلبي اليك على يدي !

وهو في هذا يذكرنا بالشاعر الكبير الصديق الحميم محمود ابي الوفا الذي يرفع بدوره قلبه على كفه ويقول :

امشي وقلبي على كفي اقول : الا من راغب في فؤاد صادق حان ؟

ويقول فرحات في هند :

فياليتني يا هند القاك خلسة ... وعندك مثلي حرقة وهيام
وليت نجوم السعد في نشوة الهوى ... تساهرنا والعاذلون نيام

ويقول كذلك :

فيا هند كم من ... نجوم تسامى ... غرورا اليك
ولكنها ان ... تفق ترامى ... على قدميك !

وفيها يقول ايضا :

يا هند يا بهجة ايامي ... يا كوثر الحب
يا جنة تسري مع الساري ... من زهرها عطر
لونت بالآمال افكاري ... فاخضوضر القفر
حولت صحرائي الى واحة ... وارفة الظل
اطيارها بالشعر صداحة ... سكرى من الطل
جددت تفكيري واحساسي ... والروح والجسما
حتى لامشي رافعا راسي ... للنجم او اسمى

ويقول في قصيدته العاطفية الموسيقية الالفاظ واللحاظ:

يا هند يا قيثارة الحب ... يا اقرب الناس الى قلبي
يا هند يا قارورة الطيب ... يا من سمت عن كل تشبيب
واحيرتي ماذا اسميك ... كل الملاحات التقت فيك

وسواء كانت هند علما على فتاة بعينها او رمزا لغانيات كثيرات ، فلا يغير هذا من حرارة العاطفة التي انصبت في كل قصائدها وانسلت بين الفاظها الراقصات وتصاويرها الفاتنات البارعات على ان طريق الحب لم يكن مفروشا بالورد دائما امام هذا الشاعر الخالع الغدار (في الشعر طبعا) ، فقد عانى من اشواكه مثل ما عانى قبله السائرون في هذا الدرب ، فعرف الطراء والصد ، ومرن ساقيه على الركض وراء ليلاه ، وكابد في سبيل اعلاء راية الحب ما كابد . واحتمل تباريح الهوى حتى آخر الشوط صادقا مع سليقته مؤتما بسنة الحياة ، راضيا بانفطار المهجةوتوزع العقل والصواب . فاذا تكسرت سهامه وراشت ، ثار لكبريائه وثار لها بقصيدة بارعة ، كتلك التي قالها في مليحة تدللت عليه وتدله في حبها ولكنها لعبت بقلبه وجافته فخاطبها محنقا مغيظا قائلا :

انت حبيبتي ام انت ربي ... أأنشد في حضورك ام اصلي

فلما ادرك خيبة المسعى مع هذه الاخيلية التي جهلت حقيقة محله ، قال لها متلهفا على عمره الضائع :

يولي العمر في اخذ ورد ... فوالهفي على العمر المولي

وهكذا تدور على الياس فرحات كأس الهوى ، فلا يعافها ولا يستعلي عليها ، وانما هو يقبل عليها كشاعر بشر ، تتأجج في صدره عواطف الشباب ، وتعتلج في فؤادهمشاعر الحب ، وتذوب نفسه حرقة في بوتقة الحنين . ولئن كان قد طوى هذا الشعر في اوانه ، يوم كان الشباب مشتعلا والعاطفة فوارة والقلب دفاقا بالاشواق ، فلا حرج عليه اذا جهر به امام الناس بعدما قطع السبعين من عمره المديد ، واذا بعث هذا الشعر الفني بحلاوة موسيقاه المترف باوصافه الجميلة ، العذب بمعانيه القريبة المأتى ، السخي في صوره الطبيعية الخلابة ، الصادق في التعبير ، الساذج في الفرحة . انه شعر منبعث من قلب انساني رقيق شفيق ، تعاورته النوب وتناوشته التجاريب ، فاهتز كما تهتز القلوب الشديدة الحس ، وعاش في فرح آنا وفي حزن وترح آنا ، فلا هو بالحب كافر ، ولا الحب مدبر عنه .

ولا بأس علينا ولا حرج وقد وقفنا على اسرار القلب عند فرحات، ان نحشره في زمرة العشاق وفي منتدى المجانين.

فنانة

كلما قلت سوف انسى هواك
هتف القلب انه يهواك
وتحدى ارادتي بعناد
ومضى هائما يلبي نداك
نسي الليل والدموع وسهدي
رد بعد السكوت لن ينساك

قلت بالكبرياء يا قلب رفقا
كم قفيت الحياة بالحب خفقا
ووصلت الصباح بالليل سهدا
وطوتني الاوهام بالحب شوقا
ضاع عمري اطيع فيه فؤدا
مستبدا واضعف الكون خلقا

قال لي ساخرا فؤادي العتيد
هل نسيت‌الهوى وحلو الوعود
وتحررت من قيودك لما
نثر الوهم دربه بالورود
انت اسرى اجل ولكن بقيد
من حنان ولهفة وعهود

لا تخافي لا تهربي لا تضني
لا تشوبي اليقين يوما بظن
انت بالحب تخلقين جمالا
انت للحب قد خلقت ففني
لا تعيشي بمنطق قد يجافي
طبع فنانة تعيش لفن

تلك ايامنا حرام تضيع
بين آهاتنا وسيل الدموع
فاسعدي الكون بابتسامة حب
انت قلب يحن خلف الضلوع
انت بالحب رقة وحنان
وابتسام ولهفة وولوع

يا لقلبي الذكي في همساته
وحنان يشع من لمساته
قال لي باسما : اتحيا زهور
دون نبع الغدير أو نفحاته
املأي الكأس مترعا بالاماني
واشربي‌الحب من كؤس سقاته

قد توهمت انني سوف اسلو
ومع الوهم قد ضللت طريقي
عدت للقلب ملهمي وصديقي
عدت للحب في حنين المشوق
عدت لهفى وقد تبينت خطوي
عدت ظمأى الى غدير الرحيق

مصر الجديدة — روحية القليني

فعالمه جنة للغرام — على حد قوله — وحرام ان ننكر عليه هذا الملك . افليس هو القائل :

عالمي جنة اذا سرت فيها
صار فيها التراب مسكا وندا
جنة للغرام تنشد فيها
الطير لحن الخلود خطفا ومدا
تكتسي ارضها اذا هزت الريح الاماليد ياسمينا ووردا
والازاهير تكسب الطل لونا
مستحبا من لونها مستمدا
فهو در وعسجد وعقيق
فوقها ، آه لو تنظم عقدا
لتقدمت ، غير وان ، الى من
هي اسمى منه واسنى واندى
ربة الحسن والذكاء ومن تقطر
الفاظها رحيقا وشهدا
قائلا : هذي نجوم من الشمس
الى اختها الصغيرة تهدى
فاقبليها فهي التي‌صاغها الفجر
فجاءت بلطفها لك ندا
واعذريني مقصرا فانا املك
قلبا ولست املك نقدا

يا صديقي فرحات : اعذرني بدوري على قصر باعي ، فانا املك قلبا يفيض بالحب لك والتقدير لشخصك وادبك والاعظام لشعرك وفنك ، ولست املك سحرا يجاري سحرك او بيانا يزاحم بيانك . فانت اشرف واسمى واسنى من ان تلم بعبقرياتك كلماتي العاجزات الكليلات . فلتكن هذه المقدمة تحية متواضعة لشاعر عظيم يبذل لي من المودة والمحبة ما لا قدرة لي على رده . وثق يا اخي الحميم انني ما جاملتك ، وانما جاملك شعرك وفنك وخالد ادبك .

القاهرة — وديع فلسطين



الامير مصطفى الشهابي

الامير مصطفى الشهابي

بقلم ابو طالب زيان

يشق على الدارس للعلامة الامير : مصطفى الشهابي ، من اين ينفذ الى اغوار نفسه ، او يلم بكنهه وعلمه وادبه الذي وسع كل شيء ، واحاط احاطة شاملة بمكنونات اللغة وسر البيان .

والامير الجليل هو : مصطفى ابن الامير محمد سعيد ابن الامير جهجاه ابن الامير حسين الشهابي ، من امراء بني شهاب القرشيين المخزوميين الذين دخلوا الشام ايام الفتح الاسلامي بقيادة ابي عبيدة بن الجراح ، وحكموا في حوران حتى عام ٥٦٨ هـ ايام الملك العادل : نور الدين محمود زنكي، ثم حكموا وادي التيم فلبنان حتى عام ١٨٧٠ م .

ولقد ولد العالم الفذ في اول تشرين الثاني سنة ١٨٩٤ للميلاد في حاصبيا : مقر بني شهاب في وادي التيم ، ودرس الدروس الابتدائية والثانوية في الشام فاسطنبول ففرنسة ، ثم دخل مدرسة غرينوبل الزراعية العالية ، واتم دراسته فيها عام ١٩١٤ وخرج بشهادة مهندس زراعي .

غير ان الامير الجليل، لم يرد الاقتصار على العلوم الزراعية فيعلو ذكره فيها وحسب ، بل عكف على المطالعة والبحث العلمي ، وضرب في العربية والفرنسية والتركية والانجليزية بسهم وافر ، قلما يتاح لمثله ، وهو سليل بيت شامخ ، وربيب مجد ، ان يركن لمثل ما ركن اليه الامير ، ويحب ما احب العالم ، الا ان يكون قد شمر عن ساعد الجد ، وهجر المغريات من حوله ، والملاعب من جانبه، وعمل على ان يكون طلعة في البحث ، اماما في اللغة ، مرجعا في التأليف .

والواقع ان الامير ، لم تشغله مناصب الدولة التي تقلدها عن بحوثه التي اخذ نفسه بها ، ولم تصرفه مهامه الكثيرة ، عن ان يعد اكبر عالم في العصر الحاضر : تسلم منصب وزير في اربع وزارات ، فكان على التتابع منذ عام ١٩١٨ حتى ربيع عام ١٩٥٤ : مدير الزراعة والخراج (١٩١٨ — ١٩٢٣) مدير املاك الدولة (١٩٢٣ — ١٩٣٤) مدير الاقتصاد الوطني (١٩٣٥) وزير المعارف (١٩٣٦) محافظ حلب (١٩٣٧ — ١٩٣٩) وزير المالية ثم وزير دولة المالية والاقتصاد الوطني والاعاشة (١٩٤٣) محافظ اللاذقية (١٩٤٣ — ١٩٤٥) الامين العام لرياسة مجلس الوزراء (١٩٤٠) محافظ حلب للمرة الثانية (١٩٤٦ — ١٩٤٧) محافظ اللاذقية للمرة الثانية (١٩٤٨ — ١٩٤٩) وزير العدل (١٩٤٩) وزير سوريا المفوض ثم سفير سوريا المفوض في مصر (١٩٥١ — ١٩٥٤) وهو اول سفير لسوريا في مصر بعد ان رفع التمثيل السياسي بين الدولتين الى درجة سفارة .

وللامير في مناصب الدولة ، اعمال عمرانية كثيرة منها : توزيع املاك الدولة ، وهي مئات من القرى على الفلاحين لايجاد الملكيات الصغيرة ، وتشييد دار الكتب الوطنية في حلب ، ودار الكتب الوطنية في اللاذقية ، فضلا عن انه كان عضوا في جمعية : « العربية الفتاة » وجمعية «العهد» وظل في الحكومة السورية طيلة عهد الانتداب بقرار من اخوانه لتقريب وجهات النظر بينهم وبين السلطات الفرنسية، بغية الحصول على الاستقلال ، وكان احد اعضاء وفد المعاهدة بين سورية وفرنسة عام ١٩٣٦ ، وكان يومئذ وزيرا للمعارف .

وانتخب الامير عام ١٩٢٦ ، عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي بدمشق ، ثم عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية في مصر عام ١٩٤٨ ، ثم عضوا عاملا فيه عام ١٨٥٤ ، وفي عام ١٩٦١ ، انتخبه المجمع العلمي العراقي عضوا مراسلا ، وانتخب غير مرة عضوا مراسلا في مجلس المعارف الاعلى في سورية ، وفي مجلس ادارة المتاحف والآثار ، وفي جمعيات علمية وادبية مختلفة ، وعين عضوا في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة ودمشق ، ومثل جامعة الدول العربية ثلاث مرات في حلقة الدراسة الاجتماعية . وفي عام ١٩٥٣ انتخبه مجلس جامعة الدول العربية رئيسا للجنة المواصلات الدائمة ، وفي عام ١٩٥٦ ، انتخبه المجمع العلمي العربي في دمشق بالاجماع نائبا لرئيس المجمع اربع سنوات ، ثم انتخب بالاجماع عام ١٩٥٩ ، رئيسا للمجمع العلمي العربي، خلفا للمرحوم خليل مردم بك ، فكان الرئيس الثالث لذلك المجمع .

وقد كافاته الدول ، نتيجة لجهوده العلمية والادبية ، بالاوسمة والنياشين ، فمنحته الحكومة المصرية الوشاح الاكبر من وسام النيل عندما كان سفيرا لحكومته في مصر ، ومنحته سوريا وسام الاستحقاق السوري من الدرجة

الاولى ، ومنحته الدولة الفرنسية وسام ضابط بالاستحقاق الزراعي ووسام ضابط بالاكاديمية .

ومما يستحق الذكر ، ان ارباب الزراعة في ديار الشام ، قد اجمعوا على ان الامير مصطفى الشهابي ، لا يدانيه عالم في الوقت الحاضر ، وحسبه ما قاله الدكتور امين المعلوف : « لا يختلف اثنان في ان الامير هو علامة العربية الاوحد في المصطلحات الزراعية ، وانه فيها نسيج وحده » فقد قضى سنين عديدة من حياته ، يدرس نباتات الشام الزراعية وحشراته وحيواناته الاهلية واقتصادياته ومياهه .. حتى استطاع ان يطبق العلوم الزراعية الحديثة على هذا القطر، سواء في اعماله الحكومية ام في مؤلفاته الزراعية .

وكان لزاما عليه ، في نقل علوم الزراعة الحديثة الى العربية، ان يتحرى اصلح الالفاظ في المعاجم العربية، وفي كتب الحيوان والنبات والزراعة القديمة ، وحقق قدرا كبيرا من المصطلحات العربية وضعها امام الكلم الفرنسية.

اما النباتات الزراعية التي كانت العرب تجهلها ، فقد وضع الامير لها اسماء عربية او معربة بطريقته الخاصة ، وهي الرجوع الى اصول الاسماء العلمية الدالة على هذه النباتات ، وترجمة تلك الاسماء بمعانيها الاصلية او تعريبها اذا كانت تدل على اعلام .

ولقد نشر الامير ... كثيرا من هذه المصطلحات في مجلة « المجمع العلمي العربي » وفي مجلة « المقتطف » ثم اودع معظمها : معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية ونشر في مجلة « المجمع العلمي » جملة من هذه المصطلحات النباتية والجيولوجية ، تبلغ نحو الف مادة جديدة ، وذلك بعد طبع معجمه في طبعتيه الاولى والثانية .

وشارك مجمع اللغة العربية بمصر ، في تحقيق عدد كبير من المصطلحات العلمية ، حتى اصبح معروفا في الاقطار العربية بانه احد العلماء الذين اغنوا العربية بالمصطلحات العلمية ، وبانه من اوسعهم اطلاعا على طرائق وضع المصطلحات العربية . وقد دل على ذلك كتابه : «المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، في القديم والحديث » اذ اعترف كثير من اعضاء المجامع العلمية واللغوية واساتذة الجامعات وكبار الادباء ، بأن هذا الكتاب الفريد ، هو انصع دليل يرشد العلماء العرب الى اصلح السبل التي تتبع في وضع المصطلحات العلمية بلغتنا العربية .

وتعد كتب الامير ... الزراعية ، اهم مرجع لارباب الزراعة ، وتلاميذ المدارس والذين يعنون بدراسة هذا العلم ، وحسب طاقته العلمية الجبارة هذا الثبت من الكتب والابحاث : كتاب الزراعة العلمية الحديثة ، وهو يبحث في الاتربة والاعمال الزراعية العامة والاسقاء والصرف والاسمدة والدورة الزراعية ، وزراعة الحبوب والقطاني وبعض البقول ونباتات الكلاء والنباتات اللفية والدهنية والصبغية الخ ...

كتاب « الاشجار والانجم المثمرة » ويتناول بحث ثلاثين نوعا من اشجار الفواكه وانجمها كالزيتون والكرم والبرتقال والمشمش والفستق والبطيخ وتوت الارض الخ ...

كتاب « البقول » ويبحث في زراعة اهم الخضر في بلاد الشام وعددها خمسون بقلة ...

كتاب « الدواجن » ويبحث في تربية الخيل والبغال والحمير والبقر والجاموس والضأن والمعز والابل ...

« الدفاتر الزراعية » وهي رسالة في كيفية استعمال الدفاتر الزراعية بالطريقة البسيطة ...

معظم الالفاظ الزراعية : وهو معجم فرنسي عربي لالفاظ العلوم الزراعية الحديثة كالزراعة العامة والخاصة وزراعة البساتين وعلم الخراج ، وتربية الخيل والماشية والنحل والسمك والطير الاهلية ، وما له صلة بالزراعة من نبات وحيوان وحشرات وآلات وجريات وصناعات ومعدنيات واقتصاديات الخ ...

كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث » : وهي عشر محاضرات القاها الامير على طلاب معهد الدراسات العربية العالية عام ١٩٥٥ ، ويعد هذا الكتاب فريدا في بابه من حيث وسائل وضع المصطلحات ، وتطور اللغة العربية لاستيعاب العلوم القديمة والحديثة .

كتاب الاستعمار : يبحث في تاريخ الاستعمار في الارض ولا سيما الاستعمار الاوروبي الحديث ، وفيما يسميه الاستعماريون حقوق الاستعمار ، وفي اساليب المستعمرين في ادارة شئون المستعمرات والاستيلاء على مرافقها ، وفي القضية العربية والثورة العربية ، وعلاقات الدول الاستعمارية ببلاد الشام ، ولا سيما الانتداب الفرنسي في سورية عقب الحرب العالمية الاولى .

كتاب « القومية العربية : تاريخها وقوامها ومراميها » وهي محاضرات القاها الامير عامي ١٩٥٧ — ١٩٥٨ على طلاب معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة .

معجم المصطلحات الجراحية ، بالانجليزية والفرنسية والعربية ، وهو يشتمل على نحو الف لفظة معرفة بالعربية تعريفا علميا موجزا ، وقد نقله الى العربية بطلب من منظمة الاغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة .

كتاب الشذرات ، وهو يشتمل على جانب اختاره من محاضراته وبحوثه ومقالاته العلمية والادبية والفلسفية والفنية والقومية .

وكان للامير الجليل ، فضل كبير في وضع وتحقيق الفاظ « المعجم العسكري » الذي اصدره الجيش بدمشق، اذ كان رئيسا للجنة التي نقلت الفاظ المعجم الى العربية ، بعد ما تم وضعه على قسمين : انجليزي عربي ، وفرنسي عربي .

ومن الكتب التي نظر فيها : كتاب « تطور الزراعة في الشرق الاوسط » لمؤلفه الدكتور كين ، فقد اشرف على ترجمته العربية ، ثم اعاد كتابتها كلها بقلمه ، وشرح بعض جمل الكتاب ، وعلق على جمل اخرى ، بناء على طلب

الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية .

وللامير بحث طويل في « الزراعة الحديثة في الشام » غير مشاركته في كتاب : « المعلومات الفنية » التي تضمنتها الطبعة الثانية لكتاب « الغوطة » .

وله بحوث وتحقيقات ودراسات كثيرة في اللغة والمصطلحات العربية جاوز عددها الخمسين ، كان ينشرها في مجلة « المجمع العلمي العربي بدمشق » او مجلة « المقتطف » او كان يتلوها في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهي :

الوان الخيل وشياتها ، نظرة في كتاب الفلاحة الاندلسية لابن العوام ، اسماء نباتات مشهورة ، الفاظ التصنيف في النتاريات ، العشر والخراج في الخلافات العربية ، مصطلحات جيولوجية ، كلمة Amalgame الاعجمية هي من « الملغم » العربية ، اسماء الفصائل النباتية ، جملة من المصطلحات النباتية ، الجزء الخامس من كتاب: «النبات» لابي حنيفة الدينوري ، نهضة اللغة العربية للتعبير عن حاجات الحياة العصرية والتعليم العالي ، مصطلحات الاجتماعيات النباتية ، كلمات مولدة مشهورة في كتاب : « قوانين الدواوين » لابن مماتي ، الاقليم في الفرنسية والعربية ، مدى النحت في اللغة العربية ، مدى التعريب في الفاظ تصنيف المواليد ، كتب الفلاحة العربية والفاظها المولدة ، الفاظ الانواع النباتية (بحث يشتمل على نحو ٧٠٠ لفظة لاتينية ، ذكر مقابلها بالعربية) ، تأثير العرب والعربية في الفلاحة الاوروبية ، بعض المؤلفات الحديثة في المصطلحات العلمية .

والواقع ، انه لا غرابة في هذا الجهد ، اذا عرفنا ان الامير يعيش عيشة منتظمة هادئة في داره المشرفة على دمشق والغوطة ، متزوجا خلافا لعادات اسرته من اسرة تجار دماشقة ، ويتحلى بكثير من الصفات التي جعلته يأخذ مكانه وسط هذا الجيش اللجب من العلماء والباحثين والمفكرين من ابناء جيله ، ويطغي اسمه على اسمهم ، بارادته القوية ، وهمته العالية ، وسعة صدره ، وطيب قلبه ، ورقيق شعوره ، وصريح كلامه ، ونفاذ بصيرته ، غير وراثته صفات الحاكم عن اجداده بابائه وشممه ، وترفعه عن الدنايا وسفاسف الامور .

وللامير مذاهبه الدينية والقومية ، فهو يؤمن بوجود مدبر لهذا الكون ، ويعترف بقصور عقل الانسان عن حده وادراكه ، ولهذا يذهب مذهب اكثر العلماء وهو : « اللادرية » ويحترم الاديان السماوية ، ويعتقد ان قواعد الاخلاق التي اشتملت عليها ، قد نفعت البشرية منافع جليلة ، كما ان العقيدة الدينية ، راحة وسلوى وعزاء لا كفاء لها في هذه الحياة . ويرى ان القومية العربية مدينة للدين الاسلامي كثيرا ، ولا سيما في السنين الخوالي ، وان نهضتنا الحديثة يجب ان تؤسس على القومية العربية .

والامير من اكبر قدماء الدعاة الى جامعة الدول العربية، على ان يسار بتلك الدول نحو الاتحاد فالوحدة ، غير عمله على استقلال بلاد العرب في الجمعيات السرية والعلنية منذ اوائل هذا القرن ، متبعا سبل الحكمة في دعوته ، ناصحا بالتريث والصبر ، حتى تطيب ثمار الجهاد ، فيجنيها العرب وهم بها زاهون تياهون على من عداهم من امم البغي والعدوان . .

على ان للامير مذاهبه الاجتماعية ، بجانب مذاهبه الدينية والقومية ، فهو يميل الى الاشتراكية المعتدلة ، ويرى ان العالم اصبح لا يطيق وجود الثراء الواسع في جانب الفقر المدقع ، ولا بد للعالم العربي من اتخاذ قوانين تقضي بتوزيع الارض على مستغليها ، وجعل المرافق العامة في يد الدولة ، واحكام الرقابة على كل من تحدثه نفسه ، او يركن الى الهدم او الاثارة ، فضلا عن رايه في زيادة نشر التعليم الابتدائي والفني ، وتعليم المراة ورفع الحجاب والمحافظة على عاداتنا العربية ، والتعصب للغتنا وثقافتنا.

وهو عدو للاستعمار والمستعمرين ، ويرى ان اكثر الحروب الحديثة من جناياتهم ، ويكفي في توضيح رأيه كتابه : «الاستعمار» وهو عامر بالنظريات التي تبين اضرار المستعمرين في المجتمع البشري ، غير انه لا يرى رأي الداعين الى الانسانية الشاملة في البلاد العربية ، بل يقول بالقومية العربية الوثيقة ، ففي حصر جهودنا بنطاقنا العربي خدمة للانسانية كلها ، اذ لا يجوز تفكيك عرى القومية عندنا ، ما دام الغربيون الاقوياء يربون ابناءهم ويسيرون في معاملة بعضهم لبعض ، وفي معاملتهم للشعوب الضعيفة ، على مبادىء القومية المتطرفة ، وعلى قواعد الاثرة والاستعمار . فالذين يجب أن تكون نظرتهم الى العالم نظرة انسانية ، هم ابناء الشعوب الغربية القوية ، لا هذه الشعوب التي قصاراها: الدفاع عن كيانها واستقلالها.

وفي خاتمة كتاب « القومية العربية » يقول الامير : « ليست القومية العربية فلسفة قومية ضيقة ، ولا مذهبا اجتماعيا محدودا ، قوامه الاثرة او التعصب او البغضاء ، بل هي فلسفة اجتماعية بناءة تقدمية ، تدعو كل عربي الى محبة امته العربية ، ووطنه العربي ، والى الاعتزاز بماضي هذه الامة ، والى العمل التقدمي لحاضرها ولمستقبلها ، كما تدعو الى محبة الانسانية والى خير البشرية ، والى حق كل شعب على الارض بتقرير مصيره » .

وقد رحل الامير الشهابي ، ست مرات متتابعات الى القاهرة ، بدأت من عام ١٩٣١ حتى ظهور الحرب العالمية الثانية ، وكان يمكث في كل مرة شهرا وشهرين ، يكتب في الجرائد والمجلات ويحاضر في النوادي ، ويتابع الحركة العلمية والادبية ، ويدعو الى القومية العربية والى تضامن الدول العربية واتحادها ، ولهذا اصبحت له شهرة في الديار المصرية لا تقل عن شهرته في بلاد الشام .

وفي سنة ١٩٤٠ ، رحل الى العراق بدعوة من وزارة المعارف العراقية ، فالقى اربع محاضرات في ردهة كلية

الحقوق ، ومحاضرة في محطة الاذاعة ببغداد ، وعاد بعد الحرب فرحل الى القاهرة مرات ولا سيما بعد انتدابه عضوا مراسلا ، ثم عضوا عاملا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

غير ان الذي يتابع جهود الامير العلمية والادبية ، يضنيه البحث ، ويتعذر عليه الالمام باتجاهات هذه العقلية العربية الجبارة ، التي بلغت الغاية في البحث ، ونفعت العلماء في كل منحى من مناحي الحياة ، حتى ان البحاث على اختلاف درجاتهم ، والمفكرين على تباين ثقافاتهم يشهدون له بطول الباع ، والمعالجة العلمية بالاسلوب السهل السلس مما دفع الانسة « مي » رحمها الله ، ان قالت : « انها ما استمعت مرة الى ابحاثه الدقيقة في شتى العلوم والاداب والمذاهب الفلسفية ، الا وتمثلت لها وحدة الوجود » .

وفي عام ١٩٥٩ ، القى الامير في الدورة السادسة والعشرين لمؤتمر مجمع اللغة العربية بحثا عنوانه : «الفاظ زراعية حضارية » وعند انتهاء البحث ، قال الدكتور ابراهيم مدكور كاتب سر المجمع في محضر الجلسة : «اعتقد انكم تشاركونني جميعا في شكر السيد الاستاذ الامير مصطفى الشهابي ، على مساهمته الواسعة فيما يتعلق بالمصطلح العلمي العربي ، واستطيع ان اقول ان كثيرا مما اقررناه من مصطلحات في علوم الاحياء وخاصة النبات منها ، كان بعد نقاش من السيد الامير » .

وقال الدكتور طه حسين في الجلسة نفسها : مع شكري للسيد الامير واعترافي بان كل ما قدمه للمجمع ومشاركته لنا ، كان خصبا دائما ونافعا ، وباني مع هذا الشكر – الذي لا معنى لتكراره لاني أعلم ان السيد الامير لا يحب الشكر والثناء – اريد ان اسأل السكرتير العام ... الخ » .

وفي الجزء الثاني من المجلد الثلاثين من مجلة « المجمع العلمي العربي » مقال للدكتور مرشد خاطر ، عن كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » جاء فيه :

« ... موضوع شائك لا يستطيع الجولان فيه ، الا من وقف نفسه على التقصي ، وبحث جليل تفتقر اليه لغة الضاد اشد الافتقار ، فلا عجب اذا ما انتدب له بحاثة كبير كالامير مصطفى الذي عانى امر المصطلحات العلمية زهاء ثلث قرن ، فوضع وحقق في خلال هذه السنوات الطوال الوف المصطلحات في علوم الزراعة والمواليد ولا سيما النبات ... الخ » .

كما كان للامير شكيب ارسلان رسائل تفيض بالثناء ، على جهود الامير الشهابي العلمية والادبية . فمن رسالة له:

« قرات في المجلد الثاني عشر من مجلة مجمعنا رحلة الى القاهرة لسعادة الاخ الامير مصطفى الشهابي ، اطال الله حياته ، ونفع به ، فاذا هو بينا هو يذكر اعيان فضلاء السوريين النازلين بمصر ، يستطرد في الكلام استطرادا بمقتضى لطفه ، ويجعل لي نصيبا من حسن ظنه ، مع اني في جنيف جد بعيد عن مصر ، ولكن يأبى الغيث ، وهو الذي يروى على مسافة شهر ، الا ان يتناول البعيد ، كما يتناول القريب ...

وما اريد الآن ان اتواضع لازداد تمدحا ، ولا ان اقابل ثناء بثناء ، ولكن اقول مقالة معترف بالحقائق : اين المثنى في تحقيقاته العلمية ، وتدقيقاته التاريخية ، وملاحظاته الادبية ، وتقريراته الزراعية ، وبحاره الزاخرة ، انه لامير العلماء حقا وعالم الامراء فعلا ، واني مع شيخوختي هذه لراض ان انضوي تحت لوائه ، كما انضوى شيوخ الصحابة تحت لواء اسامة ... الخ » .

وكتب العلامة الاب : انستاس ماري الكرملي بحثا في مجلة « المقتطف » القاهرية ، عن كتاب : « معجم الالفاظ الزراعية » جاء فيه :

« ما من أحد من قراء العربية يجهل اسم الامير الاستاذ مصطفى الشهابي ، فشهرته معروفة مما وشى به المقتطف ، ومما بثه على صفحات مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وكان جمهور ابناء مضر ، يتمنون ان يروا بين ايديهم هذا المعجم النفيس الذي كان يذكره كثيرا في مقالاته المحجلة . وقد امتاز هذا المعجم باشياء كثيرة لا ترى في طائفة من هذه المصنفات » .

وانهى الاب انستاس بحثه بقوله : « نحكم من مطالعة هذا المعجم النفيس على سعة اطلاع الامير في الموضوع الذي عالجه ... وفي الختام اننا نشكر العلامة الجليل على ما اتحف العربية بهذه الهدية الثمينة . ولا جرم ان كل عالم واسع المعرفة ، وكل مضري لا يخامره الحسد ، يشكره معنا ، لانه اهل لكل تقدير ، اذ صرف في وضع هذا التصنيف احسن ايام حياته ، واثمن ساعاته ، كافأه الله احسن مكافأة على عمله هذا العظيم » .

وقال الاستاذ العقاد : « ... ليس هذا المعجم ، في الواقع ، بالجديد بالنسبة الى العالم الباحث مؤلفه القدير، سواء في الكثير من مفرداته ، او في الطريقة العلمية التي يتوخاها عند نقل المصطلحات او تعريبها او وضعها ، بما هو معروف عنه من سعة المعرفة بعلمه ، وفرط الغيرة على لغته ، وحسن التصرف في ادائه لعباراته . وقد اطلعنا على هذه الطريقة في معجمه السابق للالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية ، ووقفنا على شيء من تفصيلاتها التي يعرضها للمناقشة في جلسات المجمع اللغوي ، وهو علم من اعلامه النابهين الذين يمحضون له اكبر العون في علم النبات خاصة ، وفي غيره من العلوم على الاجمال » .

وحسب الامير العظيم ، شهادة هؤلاء الاعلام ، وغيرهم من لا استطيع اثبات شهاداتهم لضيق المقام ، ولغنى الامير عن هذه الشهادات ، التي ينوب عنها كتبه الكثيرة وبحوثه القيمة ، وريادته في العلوم والآداب ، ودأبه طيلة هذه السنين ، وصبره دون من ، او اجر ، على عمل يراه فريضة على عقله وجسمه . وجزاؤه دعاء الى الله ، ان يطيل في اجله وينفع بعلمه .

القاهرة **ابو طالب زيان**



الكونت دي جالارزا

الفيلسوف المستشرق جالارزا

المعلم الذي وجهنا الى المحبة والحكمة

بقلم نقولا يوسف

رأيته اول مرة صباح يوم من خريف عام ١٩٢٢ في فناء « مدرسة المعلمين العليا » بحي المنيرة بالقاهرة .. وكان قد تناهى الينا شيء من أخباره قبل أن اراه .

كان يسير معتدل القامة ، ممشوق الجسم ، متزن الخطى ، حاملا مظلة سوداء مفتوحة في يد، وحقيبة صغيرة باليد الاخرى ، ولابسا « ردنجوت » أنيقا أسود .. كما كان القفاز والحذاء اللامع و « البمباغ » العريض الذي يحجب ياقة عالية بيضاء يصل طرفاها الى ذقنه ، سوداء اللون جميعا .. وعلى رأسه طربوش قصير احمر ، يبدو من تحته شعر اشقر يضرب الى الحمرة ، قيل انه شعر مستعار .. اما وجهه فكان حليقا وسيما ، مشربا بحمرة خفيفة .. فكان بهذا المنظر اشبه برجل من خاصة القرن التاسع عشر ، خرج الينا من أحد كتب التاريخ ، الى أنه كان يحمل لقب « الكونت » الذي توارثه عن اسرة اسبانية قديمة عريقة ..

وتبعته بنظري فرأيته يقفل المظلة بتؤدة ، ثم يصعد السلم المؤدي الى الطابق الثاني ، ويسير على مهل في الشرفة الطويلة حتى يصل الى نهايتها ، وهناك يدخل غرفته ، ويختفي عن الانظار . قيل انه يخلو بنفسه هناك كل يوم بضع ساعات ، ليؤلف الكتب الفلسفية التي عهدت اليه وزارة التربية بوضعها ..

ثم كنا نراه كل صباح ، يدخل الى تلك الحجرة حيث يكب على القراءة والكتابة ، ويقضي الساعات مع افلاطون وكانت ، وابن سينا وديكارت وغيرهم من حكماء الشرق والغرب ، بعيدا عن ضجيج العالم .. ولم يكن بمعهد المعلمين يومذاك جلبة ولا زحام . فكنا نحو ثمانين طالبا موزعين على ثمانية فصول نتلقى العلوم على عدد من الاساتذة العرب والغربيين في هدوء وسلام ..

وكنت عامذاك طالبا في الثامنة عشرة ، مشغوفا بالكتب وما حوت .. فاجتذبتني اليها تلك القاعة الفسيحة ذات الخزائن العامرة ببضعة ألوف من الكتب العربية والافرنجية ولا سيما حين يهدا المكان .. وهناك ارى امين المكتبة ، الشاعر « احمد رامي » قابعا وراء مكتب عريض ، يدخن ويقرأ ، ثم يسطر بيتا من قصيدة شعرية او مقطوعة غنائية ، ليبعث بها الى جريدة « السفور » ، او الى «الانسة ام كلثوم » (وكان « رامي » شابا في الثلاثين ، ومتخرجا من مدرسة المعلمين هذه عام ١٩١٤) ، فاذا ما مللت الطواف ، جلست الى الشاعر لنتم حديثا عن الكتب ومؤلفيها ، او استمع الى نادرة يحكيها ، او ابيات يرويها ، وكانت قد مرت سنة كاملة منذ ترددي على هذه المكتبة المدرسية وامينها ..

وفي شهر نوفمبر ١٩٢٢ تهيأ الشاعر رامي للسفر في بعثة الى باريس ليدرس فن المكتبات واللغة الفارسية ، ويعود بعدها أمينا بدار الكتب المصرية بالقاهرة بقية حياته الوظيفية .. وعهد بامانة المكتبة الى الاستاذ جالارزا ، الى جانب ما يلقيه على الطلاب من محاضرات فلسفية .. فرأيت الشاعر والفيلسوف ، معتكفين في تلك القاعة عدة ايام ـ يحصران اسماء الكتب وارقامها ، والفيلسوف يتسلمها واحدا بعد آخر .. فانقطع ترددي على المكتبة الى حين .. حتى اذا كان يوم ١٣ من ديسمبر ١٩٢٢ (كما تنص يوميات الصبا) جاءني (عثمان) ، عامل المكتبة ، يقول ان «جناب الكونت دي جالارزا» يرغب في رؤيتي !.. فدهشت اذ لم يسبق ان التقينا من قبل !.

وذهبت الى المكتبة فوجدتها خالية من الطلبة ، يسودها صمت وسكينة ، وتحمل اليها النسمات من النوافذ ، عطور ازهار الحديقة المجاورة .. كأنها هيكل مهيب تسرح فيه ارواح اولئك العباقرة الذين احتفظت تلك القماطر المتسقة بعصارة قلوبهم وعقولهم .. وفي ركن من ذلك المكان رأيت كاهن الهيكل جالسا على مقعد منخفض مستطيل وراء المكتب العريض ، مرتديا ملابسه السوداء التي لا يبدلها غائصا في تأملاته .. وعلى مسافة قريبة جلس « عثمان » لا يفكر في شيء كما يبدو !.

وقدمت نفسي الى الفيلسوف « جالارزا » فهب واقفا .. ثم تناول ثلاثة كتب صغيرة كنت ترجمتها وطبعتها واهديتها الى مكتبة المدرسة ، فعثر بها وسأل عنها « عثمان » ، فحدثه عني وعن تعلقي بالمكتبة والكتب والكتابة !..

وبادرني الاستاذ يقول باسلوبه العربي الفصيح ، وصوته الواضح الرقيق ، انه تصفح كتبي هذه ، واستنتج من مقدماتها انني اتجه نحو المعنويات ، واشير الى ضلال

المجتمع ، وهذا ادراك قلما يصل اليه المسنون ، ولهذا احب ان يراني ليوصيني بمواصلة البحث وراء الحقيقة والتعرف الى الحكمة ...

وهنا تدخل « عثمان » عامل المكتبة وشاء ان يزيد الاستاذ تعريفا بي ، وانطلق يقول انني الفت كتابا « مهما » اسمه : « الفردوس » !.

وابتسم الاستاذ وابدى اهتماما بالامر ثم قال : « الفردوس ! أحب ان ارى الفردوس !.. » ثم اخذ يحدثني عن قلة المشتغلين بالعلويات والادبيات لان الاكثرية لا تبالي غير الماديات الزائلة ، والخير والاخيار في كل شيء وفي كل مكان اقلية ... وعاد يحثني على طلب الحكمة..

وبعد ايام قلائل عدت اليه ومعي ذلك الكتيب ، وحي السابعة عشرة ، الذي حاولت فيه باسلوب الشعر المنثور ، وبسذاجة الحداثة واحلامها ان أصور « يوتوبيا » مدينة فاضلة ، مصغرة ، على جزيرة نائية انفرد فيها بنفسي وبمن احب ، بعيدا عن شرور الناس وتقاليدهم وقيودهم ، واعيش كواحد من طيور الحقل والبحر !! وكان هذا الكتيب قد طبع في شهر أكتوبر ١٩٢٢ ..

وقدمت كتبي الى الاستاذ في حياء .. وسألته ان يبدي فيه رأيه .. فاجاب : « سأتلذذ بقراءة كتاب الفردوس !.. » ــ وتشعب الحديث عن ضرورة التعلق بالامور العلوية، والمسائل الفلسفية ، والبحث عن الحكمة ، لانها « التدبير الصحيح للخير الاعظم » .. وكان هذا اول مجلس فلسفي لي مع هذا الحكيم ، تكرر فيما بعد الى ما يقرب من الف مجلس تحدثنا فيها عن الوف المسائل والمعضلات والمذاهب الفلسفية والفلاسفة القدماء والمحدثين ..

وبعد بضعة ايام جاءني « عثمان » حاملا كتابا ورسالة.. اما الكتاب فكان احد مؤلفات الفيلسوف جالارزا: «محاضرات الفلسفة العامة وتاريخها في الجامعة المصرية ــ السنة الدراسية ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ » .. وكتب عليه عبارة الاهداء : « الى محب الحب والنور ــ نقولا افندي يوسف ــ من المؤلف ك. دي جلارزا ــ ٢٤ ديسمبر ١٩٢٢ » .

واما الرسالة فكانت داخل مظروف مختوم ، وكتبت بخط عربي جميل ، وهي بنصها :

« عزيزي : اشكر لك حسن ظنك بي حيث اهلتني لانتقاد كتابك الجميل ــ الفردوس . ولكني وجدت انه لا يقدر على ذلك الانتقاد احد سواك. لان مؤلفك مظهر لضميرك ونقد ما في الضمير لا يكون الا بمزيد التجارب الوجدانية والتعلم . والذي استنتجته من قراءتي هو ان الفيلسوف الحق لا يمكن ان يخلو من الاهتمام القلبي عندما يرى شابا في سن اقتفاء النور ، يفهم شر الناس الى درجة أن يتألم منه ، ويطلب لنفسه طريقا غير الذي يسير فيه الجمهور ، ويتوجه برقة شعوره نحو المحبة الصحيحة ، ويستريح بأن يتخيل علو الآلهة ، ويقدر الجمال قدرا عظيما ، فهذه الهيئات الروحية كلها دواعي ليحب في شخصك الاله الذي صورك وليهني الحبيب المذكور في اول كتابك وفي آخره. الداعي لك بكل خير : جالارزا » .

* * *

ورحت ادرس محتويات هذا الكتاب المهدى الي « محاضرات الفلسفة العامة ... » وكان يتضمن اربعة ابحاث مسهبة عن فلسفات : ابن سينا ، وباسكال ، ومالبرانسن ، وكانت واخلاقياته ..

وراقت لي مقدمة هذا الكتاب التي كتبها عام ١٩٢٠ ويخاطب فيها المؤلف تلاميذه ، ومنها : « .. فليشرق علينا دور آخر من حياتنا الروحانية العادية ، حياة الادراك الشامل ، التي فيها كنا وسنكون دائما جميعا كائنا واحدا ظاهره الفاظ وابدان وباطنه معان وانوار .

ولنشهد للحق مسبحين له في كل وقت ، بكل ما نضمره ونقوله ونسمعه من كلام الفلاسفة المؤمنين والمفكرين . فان الانكار والظلام يشهدان له كسائر الاشياء . الا انهما لا يفهمان شهادتهما فهما بمقام الفاظنا وابداننا التي لا تفهم ما نفهمه منها .

ولنحب كل مفكر في العالم ، مهتديا او ضالا ، فالضال يحب الشفوق المتألم معه ، والمهتدي يحب المسرور بسرور اخيه .

ولا نستنكف من البحث في اي مذهب من المذاهب ، فان صدر الحكمة رحب ورحمتها عظيمة ، مثل فكرها الجامع لانواع الاضداد التي دبرتها هي ، وهي المدبرة لجميع الموجودات كما انها المدبرة لحياة محبها الفيلسوف . بل هي نفس التدبير الصحيح للغاية الصحيحة المستند الى علم المبادىء ... »

ثم يقول : « ... راعينا في نمط تعليم الحكمة قاعدة مبدئية مهمة ، شاركنا في اتباعها بعض الفلاسفة المجتهدين الصادقين مثل « كانت » ، وهي ان ندعو المتعلم الى التفكر الاستقلالي حتى يصير فيلسوفاً لا ذاكرا كلام الفلاسفة فقط . فان هذا عمل لن يغلب فيه الانسان المجلدات الضخمة والآلات الحاكيات ... »

ويقول : « ... ارى انه يحسن بطالب الحكمة ان يكتسب لنفسه المعاني الفلسفية ، حتى يكون دماغه ظرفا لافكاره ، لا لالفاظ تلبس افكار الغير .. »

«وعلى طالب الحكمة أن يستمر في هذا الجهاد الروحاني الاعظم الى ان يصير ذا روح شخصي ، ويدرك في اشد الجسم بلوغ الروح . فيتحرر من جميع قيود العتاهة . فان نصيب من لم ينل شيئا من الحكمة هو العتاهة ، كما ان نصيب من لم ينل من العلم هو الجهل . وكلاهما بلاء عظيم ، يجعل البشر يتخبطون في جميع شئونهم ! »

ودعاني هذا الكتاب الى قراءة مجلد آخر له بعنوان : « محاضرات في الفلسفة العامة والفلسفة العربية وعلم الاخلاق في الجامعة المصرية سنة ١٩١٨ ــ ١٩١٩ » .

وكان له كتاب في « فلسفة اليونان » سمعت به ولم اره ..

واما تعليقات المؤلف الخاصة في هوامش مجلدي المحاضرات فتدل على استقلال في الراي ، وحرية في النقد ، بقدر ما تدل على عقل منطقي متزن ، واطلاع واسع ..

ويبدو انه لم يطبع من محاضرات الاستاذ جالارزا في تلك الجامعة المصرية القديمة غير ما القاه فيما بين ١٩١٨ — ١٩٢٠ ، فانه عين محاضرا بها من اكتوبر ١٩١٣ وتركها عام ١٩٢١ ..

* * *

ثم لازمته بعد ذلك في مكتبة مدرسة المعلمين ثلاث سنوات في فترات كثيرة غير منتظمة (من خريف ١٩٢٢ الى صيف ١٩٢٥) حين خرجت للاشتغال بالتعليم ، ومارست تجارب جديدة كانت تلهيني عما أحب .. ولكني كنت اتردد عليه في بعض الاحايين بالمكتبة كالعادة ، فأرى الزحام يشتد حوله عاما بعد عام ، والعمل يطوقه ولا يسمح بجلسات فلسفية هادئة ..

وفي مارس ١٩٢٨ أرسلت اليه كتابا جديدا نشر لي بعنوان : « نسمات وزوابع » — مقطوعات في شعر منثور — فارسل الي وسط زحمة العمل الرسالة التالية :

« عزيزي : قد فاجأتني هديتك بالسرور . واني سامضي ساعات هنيئة في شم النسمات التي آنستها مطمئنا من الزوابع . وقد نبأتني صور كتابك بما فيه من الجمال الروحاني ، فضلا عن حسنات اخرى انتظرها من المؤلف ، ولا اشك في اني سأجدها فيه أيضا . فاشكر لك تذكارك النفيس شكرا جزيلا تصحبه ازكى تحياتي . في ١٨ — ٣ — ١٩٢٨ : كونت دي جالارزا » .

ثم ندرت رؤيتي له ولم اعد أراه بعد عام ١٩٢٩ حينما نقلت من القاهرة الى مدينة اسيوط بسبب حملاتي الاصلاحية في الصحف ، ومهاجمتي للرجعية وتحمسي للتجديد بجريدة « السياسة الاسبوعية » يومذاك ..

.. كانت احاديث ذلك الحكيم الي اشبه بدروس خاصة ، اخرج منها في كل مرة مستفيدا مستنيرا .. وكان لها اثر جلي في نفسي ، زادتني تعلقا بالفلسفات والروحانيات ، وبعلم النفس والفكريات . ولم يعكر مجراها الصافي في نفسي غير نزولي الباكر الى معترك الحياة واشتغالي بمهنة التعليم الشاقة في عهد كانت تسوده المساوىء وتزكمه عفونة المستنقعات !..

وكان حديثنا باللغة العربية الفصحى التي كان يتقنها هذا الحكيم كعالم من الازهر .. كما كان يتحدث بالعامية المصرية اذا شاء ، ويلم الماما تاما باللغات الاسبانية ، والالمانية ، والفرنسية ، والانجليزية ، والايطالية ، ثم اليونانية القديمة واللاتينية . ويقرأ الكتب بهذي اللغات الثماني ...

وطرقنا ما لا يحصى من الموضوعات ، وتناقشنا في شتى المسائل والبحوث والمعضلات .. تحدثنا عن الكون منذ ان كان سديما الى عصر انسان اليوم .. وبحثنا في النفس وكمالاتها ، والحكمة وغاياتها ، والاديان ورسالاتها .. والعقل وكوامنه ، والمجتمع ومشاكله ، والعالم وضلاله ، والروح وخلوده.. واستشرنا الحكماء الاقدمين ومذاهبهم ، والفلاسفة المحدثين وآراءهم.. وتكلمنا عن الجمال والخير ، والحياة والموت ، والحب والفضيلة ..

وقص علي الاستاذ جالارزا تاريخ حياته ، وكيف احب الحكمة ، وضحى من اجلها بالمناصب ، وهجر الاهل والوطن للبحث عنها .. وهي القصة التي سوف يرويها باختصار فيما يلي ..

ولم أكن الطالب الوحيد الذي كان يجالس الاستاذ في تلك المكتبة او في خارجها .. فكان يحادثه نفر من المعجبين بعلمه ، ويسألونه وهو يجيب كل سائل بتواضع وبشاشة.. ولم يخل الامر احيانا من بعض اللاهين الذين يسألونه في أمور فلسفية لا تهمهم ، وهو لا يضن عليهم بالاجابات السديدة ..

وعلمت انه كان منذ مجيئه الى الاقليم المصري عام١٩٠٣ مقصدا للكثيرين من الطلاب الذين تتلمذوا عليه في الفلسفة ، وكانوا يقصدون اليه انى ذهب ، وبينهم المئات من طلبة الجامعة المصرية القديمة بالقاهرة حيث علم نحو ثماني سنوات .. وكانت الكاتبة المعروفة « مي زيادة » أحدى تلميذاته في تلك الجامعة . وكانت شديدة الاعجاب بشخصه وآرائه ، وتحاكيه في المامه بثماني لغات .. وظلت وفية لاستاذها حتى النهاية ، كما كانت تراسله وتهدي اليه مؤلفاتها تباعا وتسأله رايه فيها ، وتصحب عبارة الاهداء بكلمة الخشوع ، فتوقع : «بخشوع — مي»..

وكنت ارى بعض مؤلفاتها في يده فاسأله عن رأيه في الكاتبة فيقول : « ان « مي » امرأة ، ولهذا كان في اسلوبها طراوة المرأة وشاعريتها .. » . ورأيت امامه مرة كتابها الذي طبعته عام ١٩٢٣ بعنوان « المساواة » وتحادثنا عنه فقال : « ان المؤلفة بعد ان وصفت النظم الاجتماعية في اجمال ، خرجت دون ان تقطع براي وقالت انها لا تعلم حقها من باطلها !.. وتناولت الكتاب وقرأت في صفحته الاخيرة قول مي :

« .. فالنظم الاجتماعية تتطور ككل شيء حيوي ... فلننتظر اذن ما هو كائن ... كفانا ان نرقب سير الحوادث متكلين على نفوسنا ، محدقين في وجه الحياة بلا وجل ، مستعدين لتبين الصلاح والحقيقة .. ولنكن ابدا مطلقين هذا الهتاف الجامع بين الاخلاص والحيرة... هأنذا وحدي ايها الليل ، فعلمني ما يجب ان اعلم ! هأنذا مستعد ، ايتها الحياة ، فسيريني حيث يجب ان اسير ! »

ولا يقبل جالارزا — تلميذ افلاطون — هذه اللا أدرية ولا هذه الحيرة الشعرية من تلميذته « مي » !

كان لملازمته للفلاسفة وفلسفاتهم طيلة حياته ـ وهنا عالم لا تشترك فيه المرأة الا فيما ندر ـ ما باعد بينه وبين النساء ، فكان لا يتحدث عن المرأة الا لماما ، ولا يشركها معه في فكره ، ولم يتزوج قط ، ولم يحب غير امه التي ترك موتها في قلبه حسرة .. وعاش مع كتبه في عزلة اشبه بالرهبنة ..

وكان يشبه حكماء الاغريق الاقدمين ـ وبخاصة افلاطون ـ وكانوا اذا ما عثروا على راغب في اقتناء الحكمة ، سعوا اليه بقدر ما يسعى اليهم ، ليرشدوه ويشجعوه على المضي في هذا الطريق القويم .. لا ان يتجاهلوه او يتنكروا له أو يترفعوا ، خشية أن يصبح لهم منافسا يزاحمهم الشهرة!

كان معلما منكرا لذاته ، عازفا عن الصيت والماديات ، يعطي اكثر مما يأخذ .. لا يضن بالاجابة عن اي سؤال ، ومصارحة كل باحث ، باللغة التي يسأل بها .. لا يتعصب لرأي أو مذهب او جنس .. ولا تراه الا باسما ، حليما ، متواضعا ، كريم الخلق ..

وشاهدته يوما يكتب بحبر الطبع على صفحات كبيرة ، ثلاثة كتب فلسفية فرغ من تأليفها وهي : كتاب في فلسفة افلاطون ، وكتاب في فلسفة لوك ، وكتاب في فلسفة اسبينوزا .. ثم طبع بمساعدة عامل المكتبة على الفالوزج ، أربع نسخ من كل كتاب ، اظنه اهدى واحدة الى دار الكتب المصرية بالقاهرة ، وثانية الى مكتبة المدرسة ، وثالثها حفظها عنده او عند غيره .. ولم أر واحدا من هذه الكتب مطبوعا في المطابع العامة ، ولا اعلم مصير تلك المخطوطات ، ولعلها ذهبت مع الريح !..

* * *

وفي السنة الدراسية ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ ، وما تلاها (١٩٢٤ ـ ١٩٢٥) ، طلبنا من الاستاذ جالارزا ان يلقي علينا بعض المحاضرات العامة . فلبى الطلب ، ولكنه فضل اسلوب المحاورة على طريقة محاورات افلاطون المعروفة ..

فاجتمعنا ظهر يوم في احد فصول المدرسة ، وكان موضوع المحاورة الاولى التمهيدية : « تعريف الحكمة » ، واستغرق ذلك التعريف الاجتماع الاول كله .. فكان كل طالب يدلي برأيه ويناقشه الاستاذ فيه .. وازدحم المكان في اليوم الاول حتى سدت النوافذ والابواب ، ولما اشرت الى هذا الاقبال بعد الاجتماع ، ابتسم وقال ان الكثيرين يأتون اولا للفرجة ، ولا يلبث العدد ان يتناقص حتى يقتصر على محبي البحث الحقيقيين .. وصدق ظنه فما جاءت المحاورة الخامسة او نحوها حتى كان عدد الحاضرين لا يزيد على العشرة !..

وفي ذلك العام الاول ، قام بتسع عشرة محاورة مع طلبة القسم النهاري في تلك المدرسة ، وسبع عشرة محاورة مع القسم الليلي الذي افتتح هناك في تلك السنة لمن شاء من الموظفين الراغبين في استكمال دراستهم ليتخرجوا معلمين .. وكان الاستاذ يوزع في كل اجتماع ملخص المحاورة السابقة ـ كتبها وطبعها بنفسه ..

وفي العام التالي (١٩٢٤ ـ ١٩٢٥) اكمل محاوراته مع طلبة القسمين النهاري والليلي . وكان طلبة القسم الليلي أشد اقبالا على تلك الاجتماعات الفلسفية اذ كانوا اكبر سنا ـ ويلاحظ ان جميع محاضرات الاستاذ جالارزا ومحاوراته بمدرسة المعلمين العليا هذه ـ طوال تلك السنين ، كانت اختيارية وخارجة عن المناهج والامتحانات ..

ولما انتهت تلك المحاورات الفلسفية الشائقة ، قام جالارزا بطبع ملخصاتها على نفقته ، في أربعة كتب ، ووضعها للبيع بالمكتبات بثمن زهيد ـ ويشتمل اثنان منهما على محاورات القسم النهاري ، والآخران على محاورات القسم الليلي السالفي الذكر ، في هذين العامين ، وتحتوي جميعا اسئلة الاستاذ واجابات الطلاب على مختلف اشكالها . ثم راي الاستاذ نفسه في شكل تعقيب او سؤال او خاتمة ..

ورأيته بعد ان قام بطبع هذه المجموعات الاربع ، راضيا مرتاحا ..

ومما ذكره في مقدمة الجزء الثاني من محاورات القسم الليلي قوله :

« .. وكان تعليمي للحكمة كله اجابة لطلبة احرار ، ارادوه من تلقاء انفسهم ، وانتدبوني اليه ، ولم يكلفوا حضوره البتة ، ولم يرغبهم فيه نيل اية شهادة خاصة . وواظبوا عليه سنتين متواليتين ، حتى تم بياني للحكمة ، وبلغت قصدي . فليكن هذا البيان ميراثي .. »

* * *

ونقف هنا برهة لنستمع الى الفيلسوف جالارزا ، يقص بنفسه شطرا من تاريخ حياته بقلمه ، وقد قصه علي بشيء من الاسهاب عام ١٩٢٢ ، ثم عاد فأجمله للطلبة في العام التالي وذلك في تمهيده لمحاورات الحكمة ـ قال :

« .. لا بأس من سرد شيء من حياتي الدنيوية ، لعلكم تجدون فيه ما يصح ان يكون منشطا لكم ومشجعا على المواظبة على درس الحكمة .. فأقول أني اشتغلت بالحكمة نحوا من سبع وعشرين سنة . وبذلت لها حياتي كلها وتقاعدت عن ممارسة الاشغال التي كان والدي يتعاطاها ، فأنه كان رئيس حزب من الاحزاب الكبيرة في اسبانيا ، وعضوا في مجلس شيوخها . وعن اشغال اخي ايضا وهو سفير من سفراء اسبانيا . ولما عرفت ست لغات ما عدا اللاتينية واليونانية القديمة ، ونلت شهادات من فرنسا واسبانيا ، وانتهيت من دراسة الحقوق ، وحزت فيها الشهادات الضرورية للدخول في مهنة السفراء ، اشار علي والدي بان اوجد لنفسي مركزا في الهيئة الاجتماعية قال : لانا وان كنا الآن في سعة من العيش ، لا ندري ما يضمره لنا الغد . فقلت له : دعني استمر في ابحاثي الفلسفية فهي احسن لي من كل شيء ، ولا راحة لي في الحياة ما دمت لا اعرف الحقيقة ، ولا الطريق الواجب سلوكه . فقال لي : ان الاشتغال في وظيفة عند سفير لا يمنعك من

البحث والقراءة . بل يبقي لك سعة من الوقت يمكنك ان تشتغل فيها بما تشاء . ثم هيأ لي وظيفة في سفارة النمسا لكي اجرب تلك المهنة . وكان سفيرها اذ ذاك صديقا له . فقلت له : أن حبي للحكمة لا يمكنني ان اشرك فيه غيرها. فلما راى عزمي على الاشتغال بالحكمة دون سواها ، امتنع من الالحاح علي ، ثم سمح لي أن اسافر الى مصر ، وكنت طلبت السفر اليها لكي انال العزلة التامة للتفكير والرياضات. فجئت اليها عام ١٩٠٣ وصرت ارتاض اكثر النهار بقصد انارة العقل ، وتصفية الروح ، لتصير أهلا للحكمة ومعرفة للحقيقة . وكانت هذه الرياضات شبيهة بالرياضات التي كان يقوم بها ارباب الاجتهاد الاعظم من الصوفية المسلمين واليوجيين من مذهب اليوجا الهندي . فصرفت الهمة الى اكتشاف الصواب بنفسي ، وجعل اختلاف الحكماء يحثني على مداومة البحث والتنقيب ، ولا يدعني استريح الى استصواب اي نوع من انواع الحياة . وصغر في عيني متاع الحياة الدنيا الذي كان متوافرا عندي ، والتشريفات التي حازتها عائلتي حتى صرت ارى كل شيء تافها بالنسبة الى معرفة سر الكون والصواب الاخلاقي . .

وفي سنة ١٩٠٤ تقريبا ذهبت الى الهند لاقابل في « ديفان » بالقرب من لوكنو رئيسا للفقراء اسمه « وارث علي شاه » كان مشهورا هناك . وكان كثير من امراء الهند المسلمين اتباعا له . وكان عمره يبلغ نحوا من مائة سنة . فلما قابلته قلت له : اني لم آت الى الهند لزيارة ما يزوره السياح ، ولا لرؤية شيء من غرائبها بل لزيارتك ورؤيتك . ومرادي ان اطلب منك شيئا واحدا وهو ان اكون انا انت!. فأجابني قائلا : انا وانت سوف نكون في مكان واحد « هناك » ! ثم رجعت الى مصر ، وسكنت في حلوان ، ودابت في التفكير ، وواظبت على الرياضات . وفي سنة ١٩٠٩ كان اول حصولي على ادراك ما كنت اقصده .

وفي سنة ١٩٠٨ توفي والدي ، واتفقت وفاته بذهاب ثروتنا كلها . وكان من اهم الاسباب في ذلك انه كان قد صرف مبالغ كبيرة في شراء اراضي في الجبال حيث وجد الخبراء فيها اثرا للزئبق ، وفي أحضار ما يحتاج اليه لحفر المناجم . ثم ظهر ان الزئبق فيها قليل جدا . فحينئذ اقتضى الحال ان ازاول مهنة ، لا سيما وان والدتي كانت معي حيث حضرت الى مصر بعد وفاة والدي . فزاولت مهنة المحاماة في المحاكم المختلطة . ولكن لم يتردد علي من ذوي القضايا غير قليل بسبب انصراف الاجانب الى المحامين من جنسهم ، وقلة الاسبانيين في مصر . الا ان هذا لم يكن ليهمني كثيرا اذ لم يكن قصدي من مزاولة المهنة سوى الاستعانة على المعيشة الدنيوية . بل كان قصدي ايصال الباحثين في الحكمة الى مرادهم كما وصلت انا اليه . وكنت قد ربطت هذا القصد بابحاثي الاولى فانني حينما كنت اتصور الاله كما يتصوره من لم يعرف بعد وانا في سن العشرين تقريبا ، قلت في ضميري : ايها الاله اعطني الحقيقة لكي اتمكن انا من اعطائها لمن يبحث عنها مثلي .

ثم قابلت رئيس الجامعة المصرية ، واظهرت له شهاداتي وكتابا كنت الفته في فلسفة اليونان . وطلبت منه الدخول في الجامعة المصرية . فعينت استاذا لتاريخ المذاهب الفلسفية في الجامعة فيما بين سنة ١٩١٣ و ١٩١٤، ولكني وجدت المجال امامي غير مناسب ، لان تعليم المذاهب الفلسفية يرجع الى بيان مذاهب المترددين في الحكمة المتضادين فيها . فسعيت في تغيير عنوان الدروس ، فامكنني ان انال من مجلس الادارة والاساتذة ان اجعل العنوان : الفلسفة العامة وتاريخها . فعدت اعلم هذا الفن، ثم انتدبوني لتدريس الفلسفة العربية وعلم الاخلاق ايضا. وبهذه الوسيلة امكنني ان ابث قليلا من الافكار المستقلة عن النقل الحائدة عن اقوال الفلاسفة الذين يعترف اكثرهم في كتبهم بانهم لا يزالون يبحثون عن الحكمة والحقيقة ، غير حائزين لهما . ولكن مع كل لم اجد في الجامعة المصرية مناسبة للتدريس المطلوب ، لانني كنت مقيدا بنموذج خاص ، وكان الدخول مباحا لكل واحد ، وكان يرد علينا احيانا من الجمهور من يكره الفلسفة !. . »

* * *

ونقف برهة اخرى عند تلك الفترة التي قضاها الفيلسوف جالارزا استاذا للفلسفة بالجامعة المصرية القديمة ، وامتدت نحو ثماني سنوات (١٩١٣ ـ ١٩٢١) فقد كانت هذه الجامعة مركزا هاما للثقافة الحديثة بالقاهرة ، منذ ان اعلن عن افتتاحها يوم ٣١ من ديسمبر ١٩٠٨ ـ وابتدات اولا بكلية الآداب ، فكلية القانون ، وعاشت حتى تطورت واندمجت في جامعة القاهرة الحالية وفروعها بالاقاليم ، وحتى أخذت وزارة التعليم تتخلى عن التعليم العالي للجامعة منذ عام ١٩٣٥ . .

ولقد كانت هذه الجامعة القديمة حلما يعمل على تحقيقه قادة الفكر بمصر منذ مستهل القرن العشرين ، واجتمع عدد منهم بمنزل الزعيم سعد زغلول يوم ١٢ من اكتوبر ١٩٠٦ ، ودعوا الى انشائها وجمع التبرعات لها ، وانتخبوا سعد زغلول وكيلا لها ، وعينوا الامير احمد فؤاد (الملك فيما بعد) رئيسا لمجلس ادارتها . . كما استوفدوا بعض كبار المستشرقين ، وعددا من الاساتذة العرب للتدريس فيها والمحاضرة . .

وشهدت مدرجات هذه الجامعة الاهلية على مر سنيها ، الكثير من الندوات والمحاضرات والمناظرات ، والمناقشات لامتحان « الدكتوراه » . . ثم اللقاء والتعارف بين رجال الفكر من الشرق والغرب . . وكتبت مي زيادة عام ١٩١٦ ، وكانت طالبة في تلك الجامعة بضع سنوات ، مقالة بعنوان: « وصف غرفة في مكتبة ـ مذكرات الجامعة المصرية ـ » نشرتها في كتابها : « سوانح فتاة » ١٩٢٢ تقول فيها :

« . . . اما الجامعة المصرية فمفتوحة للجميع ، ولا تقلل من فضلها حداثة سنها . ان كل صغير محبوب لانه يطلب

العطف . كل صغير مستودع آمال كبيرات لان له قابلية النمو والتكاثر ... ليست الجامعة منهل علم لطلبتها فحسب ، بل هي مهبط وحي لي حين ابلغها قبل ابتداء الدرس الذي ابتغي حضوره بدقائق اقضيها منتظرة متأملة ... ان للامكنة ارواحا ، وفي هذه الغرفة الصغيرة روح تناجيني وسر أطمع في اجتلاء غوامضه ... »

وفي هذه الجامعة ألقت « مي زيادة » اولى خطبها ، يوم وقفت في حفل تكريم خليل مطران — في ٢٤ من ابريل ١٩١٣ — تلقي الكلمة التي ارسلها جبران خليل جبران من نيويورك ، وتعقب عليها بكلمة شعرية الاسلوب بديعة الالقاء ..

وبها ألقت الكاتبة ملك حفني ناصف (المتوفية عام ١٩١٨) احدى خطبها البليغة .

وها هنا تقدم الطالب الازهري طه حسين عام ١٩١٤ وكان شابا في الخامسة والعشرين ، لينال شهادة الدكتوراه في الآداب ، برسالته عن ابي العلاء ، ويناقشه فيها علنا الاساتذة المستشرقون : نللينو ، وليتمان ، وسنتيلانا ..

وهنا بدأ الدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨—١٩٥٦) محاضراته في القانون المدني منذ عام ١٩١٨ وكان قد نال من فرنسا دكتوراه القانون عام ١٩١٢ ..

كما افتتح دكتور احمد ضيف في ذلك العام دروسه في الادب العربي وبلاغة العرب .

كما كان دكتور منصور فهمي (١٨٨٦ — ١٩٥٩) من ابرع المحاضرين في الفلسفة بتلك الجامعة ..

ومنذ عام ١٩١٦ كان زكي مبارك يطلب العلم ، هو وجمع من الازهريين وطلبة القضاء الشرعي ودار العلوم ، في تلك الجامعة، ثم تقدم عام ١٩٢٤ لينال درجة الدكتوراه عن رسالته : « الاخلاق عند الغزالي » في جلسة صاخبة رأسها منصور فهمي ..

وفي ذلك الوسط المائج بالفكر ورجاله ، والشبيه بخلية النحل وسط الحديقة ، كان يحاضر الفيلسوف جالارزا ويحاضر تلاميذه ويلتقي بهم كل يوم .. وانتهز طلبته فرصة انتهائه من تدريس المذاهب الفلسفية عند اليونان والرومان، فأقاموا له حفلة تكريمية بحديقة فندق « شبرد » مساء ١٣ من ابريل ١٩١٧ رأسها الامير حيدر فاضل ، وحضرها صديقه الزعيم سعد زغلول ، والمرحوم فارس نمر ، وعدد كبير من الاساتذة والطلاب .. وتعاقب الخطباء يشيدون بمآثر الاستاذ جالارزا .. ثم وقفت الانسة مي زيادة وألقت خطابا بارعا نوهت فيه باسبانيا وتاريخها وثقافتها ، ثم خاطبت استاذها بقولها :

« انت الغريب عنا جغرافيا نراك من اكثر الناس اهتماما باتجاهنا المعنوي . وهل يمكن ان يكون المحسن غريبا ؟. نراك ساعيا الى انهاض المدارك منا بحلم العالم الذي قد سبق وطوى طريقا يقودنا الآن فيها ، وجال في احنائها ومطاويها . فوقف على ما يملأها من مجيد الصعاب .

وهناك في قاعة الدرس الصغيرة — حيث يدخل شفق المساء على عجل ، وتسرج المصابيح سريعا ، كم استحضرت اشارتك الواسعة ، نوابغ الاجيال بتوقد عطاردي ، وبرصانة مفكر قد اعتاد تسنم الذرى العقلية . فسردت مذاهب المتقدمين باسطا اقوالهم ، مفندا آراءهم ، شارحا ما لامس منها الاعجاز ، ملخصا نقد الناقدين ، فآتيا بالنقد عليها جميعا . ذلك بسلاسة وايجاز تكسوهما بلاغة عبقرية قد تكون انتهت الى الاسبان كارث شيشروني !

وبينا بيانك يزيح حجبا ضربن بين المعاني والافهام اذا بالنفوس منا كتب مطلات على آفاق جديدة . فليمقتنا عطش العلم ، وتأخذنا رغبة السؤال . وروحك الكبيرة العالية منهل نور وحكمة — كلما استقينا منها معرفة وضياء، زادت تدفقا وتدفقت سخية ، وديعة ، صافية ، يتألق في تموجها حب العلم وحب الكمال .

اليوم عيد شكرنا . ولئن ذكرنا باغتباط وامتنان ساعات تفيض بها علينا سنى حياتك ، فاننا نذكر بتهيب ساعات اخرى كثيرا لا نسمعك فيها ولكن نعرفك في غيابك عاملا لخيرنا — تلك ساعات العزلة اذ يختلي الاستاذ بنفسه مهملا ضوضاء العالم — ساعات سكوت وتأمل تجعل الفيلسوف عميقا كالبحر لا تقلقه العواصف ولا تكدره الدلاء .

يزال منحنيا على كتب كثيرة تتصاعد من صفحاتها صور الحياة وخيالات اللانهاية . تقابل بين لغات قديمة ولغات حديثة ، وتقارن بين أسلوب واسلوب ، وتعبير وتعبير لتنقل الى لغة العرب حكمة شقيقتيها في المجد والقدم ، ومناظرتيها في الفصاحة والغنى : الاغريقية واللاتينية . لكنهما على شهرتهما لم تنتشرا انتشارها .

اننا ننحني باحترام لدى ذكر تلك الساعات النفيسة ، ونستزيدك منها لاننا في حاجة الى اثرها في نفسك وفي حاجة الى نتائجها الجليلة . ولئن استشعرنا بما تجده من العناء الكثير قرب الارتياح الجزيل في عملك المجيد ، فاننا نعلم كذلك ان من كان مثلك ما الهمته الحوائل الا همة ونشاطا ، وما زادته المسؤولية الا توهجا واخلاصا . واللغة التي احببتها وانزلتها من علمك الواسع منزل الكرامة حتى تملكت اعنة الكلام فيها سوف تجازيك جميلا ، سوف تحفظ تعاليمك بين كنوزها الغاليات ، سوف تفتح كتابها الذهبي لك وتضم اسمك الى اسماء ابنائها الخالدين .. »

***

ويكمل الحكيم جالارزا قصة حياته بقوله :

« ... ثم خرجت من الجامعة المصرية ، وعينت في مدرسة المعلمين العليا . فوجدت فيها طلبة متمرنين على التفكر . فاخذت احقق قصدي الذي جعلته امامي منذ سنين عديدة . ولا اتمنى بعد تمامه غير الانصراف الى الراحة التامة . فهأنذا قد اطلعتكم على صفحة من حياة انسان مجتهد ، اطلع على آراء الشرق والغرب ، ملتفتا اليكم التفات الذي يشعر كأنه هو انتم . راغبا في خيركم ،

رغبة الاب والام في خير ابنائهما ، لان الذي يحملني على تدريس الحكمة ، حنان والدتي على المخزون في نفسي ، وكوني عديم الاولاد لاني لم اتزوج . فليس لي من ابذل له شعوري غير الذين يحبون الحكمة كما احبها . ولست اقول عن نفسي انني فيلسوف ، اذ الفيلسوف معناه محب الحكمة الطالب لها . ولكني اقول دون ان اخشى لوم لائم اني اعرف الحكمة ، واستطيع ان ارشد اليها . وانا حر في آرائي . وحريتي تامة ، وهي حرية الذي لا يهمه من الدنيا شيء . وهو مستعد لفراقها في كل لحظة !.. »

***

والآن وقد وصلت قصة الحكيم الى نهايتها ، اقول :

كنت أزوره في المكتبة لاستمع اليه ، وافيد من حكمته، وكنت اجده اول امره بالعمل امينا لتلك المكتبة المدرسية ، قانعا راضيا هادىء البال ... ثم اخذت الحال تتبدل ماتت امه التي جاءت لتسكن معه بالقاهرة بعد وفاة ابيه وافلاسه .. فاصبح وحيدا في العالم وفي الغربة ، يكاد لا يفارق منزله الا الى المكتبة حيث يظل جالساً من الصباح حتى الواحدة بعد الظهر .. ثم يعود الى بيته وكتبه . ولم تكن له سلوى في الحياة غير القراءة ..

وانقطع عن رياضته الروحية التي كان يقوم بها قديما في صحراء الاهرام ، وفي مسكنه بمدينة حلوان ، وفي مصطافه احيانا بجوار البحر في رأس البر عند دمياط .. وحيث كان يفد اليه في عزلته بعض مريديه وتلامذته للبحث معه في المسائل الفلسفية والروحانية .. وحيث كانت تدول حول حياته الاساطير والشائعات التي كان يحكيها لي متفكها ..

ثم لاحظت ان عمله في تلك المكتبة اصبح عبئا على نفسه وهو صابر من اجل الرزق .. كان المكان في أول عهده بالعمل هادئا والطلبة قليلي العدد ، والعمل يسير في يسر وسلام .. ثم تبدلت الحال ، وفتحت مدرسة المعلمين ابوابها للقسمين النهاري والليلي ، واكتظت بمئات الطلاب يلقنهم المناهج عشرات المدرسين من العرب والانجليز والفرنسيين .. واختزلت قاعة المكتبة الفسيحة اللطيفة ، بسبب الزحام الى حجرة صغيرة كالمخزن .. واخذ الزحام والجلبة والهرج تكتنف الحكيم من كل صوب ، واستغنى عن محاضراته ومحاوراته التي لا تدخل في المناهج المقررة .. ولم ير فيه المستجدون من الطلاب غير موظف لاعارة الكتب واستردادها ..

ومع ذلك فقد ظل يواجه الحياة بنظرته الفلسفية وبصبر الحكيم .. وكان قد بلغ الستين وسن التقاعد ، وفصل من عمله وحل شاب مصري موظف مكانه في أمانة المكتبة ، وخرج الشيخ الى عرض الطريق بلا عمل ولا مال ، لا يحمل معه غير رأس ممتلىء بالعلم والحكمة ، ونفس فائضة بالطيبة والسماحة ، وجيب خال من النقود .. فدار يبحث سدى عن عمل ، — ولم تكن الفلسفة موردا للرزق — وقابل بعض أصدقائه القدماء فلم يمد اليه احدهم يدا .. وعرض اثاث بيته وكتبه للبيع .. ودفعته الحاجة في النهاية الى الاسترزاق من علم النفس فاعلن يوما في صحيفة انه يقابل زائريه ليكشف لهم عن المقادير .. وما ان ظهر هذا الاعلان حتى انبرت احدى الصحف الاسبوعية الى التعريض بالرجل واتهامه بالدجل .. فكف عن هذا وذاك ..

وكنت قد نقلت من القاهرة الى اسيوط عام ١٩٢٩ ولما عدت الى العاصمة في اجازة ، بحثت عن الاستاذ جالارزا في كل مكان فلم اعثر له على اثر . فمن قائل انه رحل الى الهند ليعمل في احدى جامعاتها ، ومن قائل انه انتقل الى رحمة الله .. ولم اره منذ ذلك الحين او اسمع عنه خبرا ...

الاسكندرية **نقولا يوسف**

تسامح

نسبت الى صحبي العقوق ولم ادر
باني باقراري عمدت الى الغدر
شكوت وبي عن وازع النبل غفلة
كأني فوقت السهام الى صدري
أأنكر من صحبي العقوق وعلتي
من العلل اللاتي تجل عن العذر
تصدوا الى التفريط من غير علة
فما علتي لما عزفت عن الصبر ؟!
هو الضعف يا نفسي فديتك بالقوى
واين القوى مني وقد بحت بالسر ؟!
معاذ النهى يا نفس ان تتبذلي
لئن احرقوا عودي ، فاين شذا العطر؟!
الهي اقلهم من عثار ذنوبهم
فلست الذي يجزي الاساءة بالنكر
وطهر جناني من ظنون خبيثة
وجنب لساني ما يعاف من الهجر ..!
فأخبث ما اخشاه ترويج فتنة
واطيب ما ارضاه حرية الفكر
واطهر ما اخفيه احساس عزة
اسجلها للحلم والعلم والذكر
واعطر ما اهديه وحي تسامح
يفيض بما ابديه من اعمق الشكر .!

القاهرة **سلامة خاطر**

النقد الادبي بين القديم والحديث

بقلم عيسى ميخائيل سابا

* * *

النقد صفة ملازمة للانسان فهي في طبعه مهما كانت درجة ثقافته ، ومهما كان ذوقه ، فهو يرغب في التعرف الى حقيقة الاشياء ، كما انه يرغب في ان يميز بين الخير والشر وبين الجميل والقبيح والعسر واليسر . ولا ريب ان النقد قد تدرج مع الاجيال بحسب الاوضاع والعادات والتقاليد ، فقد كان يترك ما ينبو عنه عصره ويعتصم بما تواطأ عليه أبناء الجيل وقالوا انه حسن صالح . وقد تخطى ذلك الى الكلام وعليه نقدر ان نقول : ان النقد هو بيان ما في الكلام من جمال او عيب ، ولا يكون هذا الا بتصور المعاني المفردة للالفاظ وصحتها ، وادراك الاغراض الاصيلة للعبارة وبيان ما فيها من صواب وخطأ . ومرد ذلك الى الذوق ، وقد تنبه اساطين العلم الى ذلك فبعد امعان النظر في كلام العرب من منظوم ومنثور وضعوا علما اطلقوا عليه اسم علم المعاني والبيان والبديع ويجمله البعض فيقول : علم البلاغة . وما تواطئوا على وضعه الا لاختلاف الاذواق في الناس فقد يستحسن بعضهم قول الاعشى :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول

وقد فسر اصحاب اللغة هذه الالفاظ بان معنى شاو ، الشاوي ، والمشل سواق الابل ، والشلول الخفيف والمشلشل المتحرك والشول الذي يحمل الشيء .

وارى ان هذا البيت ناب بمعناه وما اظنه الا منحولا فلا ارى علاقة بين الشاوي والمشل وما بعدها ، وهو ايضا ضد الفصاحة لتكرار حرف الشين في هذا العجز .

على انني لا انكر ان اللسان العربي قد تنقل في المراحل اللغوية واطلقوا عليها « اطوار تهذيب اللغة » وقد ظهر هذا بظهور الشعراء المتكسبين وقد اطلقوا عليهم «عبيد الشعر» ومنهم الاعشى وزهير والنابغة .

ونرى ان الاسواق كانت سبيلا للنقد البدائي ، فتناول الاشعار والخطب والمحاورات ، كما انها كانت سبيلا لنهضة اللغة وتهذيبها وحصرها في لهجة واحدة .

اما النقد البدائي فنراه عند طرفة ، فقد روينا انه سمع وهو صبي منشدا من قومه قال :

وقد اتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

فعابه قائلا « استنوق الجمل » وذلك ان الشاعر وصف الفحل بالصيعرية وهي عندهم من اوصاف اناث الابل ، ونقلت لنا كتب الادب التحكيم الذي وقع بين ام جندب الطائية زوج امرىء القيس وعلقمة الفحل ، فقال امرؤ القيس :

فللسوط الهوب وللساق درة وللزجر منه وقع اهوج متعب

وقال علقمة :

فادرك لم يجهد ولم يثن شاوه يمر كمر الرائح المتحلب

وصاحب لسان العرب ينكر ذلك التحكيم ، وقد حكمت ام جندب لعلقمة ، ونسب هذه المعارضة من علقمة لامرىء القيس الى الانتحال . على ان المعنى لا يخرجنا عن النقد ، للمعارضة من معنى تعقب المتأخر ومحاولته الغلبة للمتقدم بالتجويد والزيادة .

وقد روينا ، ان النابغة الذبياني كان يقوي في شعره فدخل يوما يثرب « المدينة المنورة » والناس فيها من المعجبين بشعره فدسوا له قينة تغنيه ما قاله بالمتجردة امرأة النعمان وفيه أقواء اي اختلاف حركة الروي ومطلع القصيدة :

أمن آل مية رائح او مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود

ولما بلغت الى قوله :

زعم البوارج ان رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الاسود

فاطالت ضمة الدال في « الاسود » والقافية كلها مبنية على الكسر ، فطن لهذا العيب في شعره فاصلحه بقوله : « وبذاك تنعاب الغراب الاسود » وقال : « دخلت يثرب وفي شعري عاهة وخرجت وانا اشعر الناس » .

وبعض ادباء هذا العصر يحذفون الهمزة من مطلع القصيدة « أمن » وقد فاتهم ان هذه الهمزة زائدة ويدعو العروضيون هذا « الخزم » وهو زيادة تكون في اول البيت لا يعتد بها في التقطيع وقد تكون الزيادة بحرف الى اربعة من حروف المعاني .

وروينا ايضا ، انه كان يقضي بين الشعراء في عكاظ فوفد عليه حسان بن ثابت والخنساء ومعهما الاعشى فانشده حسان :

لنا حاضر فعم وباد كانه شماريخ رضوى عزة وتكرما

وقيل انشده غيرها . وانشدته الخنساء :

قذى بعينك ام بالعين عوار ام ذرفت مذ خلت من اهلها الدار

وتعد هذه القصيدة من عيون القصائد التي رثت بها اخاها صخرا . وانشده الاعشى قصيدة مطلعها « ما بكاء الكبير بالاطلال » وهي من مطولاته ، فقال النابغة للخنساء لولا ابو بصير أي الاعشى سبقك لقلتانك اشعر من بالسوق، وقال لحسان : انك لشاعر فأغضبه ، وقيل انه قال في قصيدته :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى واسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فاكرم بنا خالا واكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : اضعت فخرك واقللت جفانك وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك .

واما ابو علي القالي فيقول في اماليه : انه قال له وللخنساء انك لشاعر وانها لبكاءة .

فان صحت هذه الروايات يكن العرب في جاهليتهم قد عرفوا النقد وعرفوا جموع القلة والكثرة بالسليقة والذوق،

وقد تكون قواعد اللغة معروفة آنذاك ، ويقول الامام أحمد بن فارس في كتابه « الصاحبي في فقه اللغة » والدليل على صحة ان القوم قد تداولوا الاعراب ، انا نستقري قصيدة الحطيئة التي اولها :

شاقتك اظعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والاعراب ، تجيء مرفوعة ولو علم الحطيئة بذلك لاشبه ان يختلف اعرابها ، لان تساويها في حركة واحدة اتفاقا يكاد لا يكون ، فان قال قائل : قد تواترت الروايات بان ابا الاسود اول من وضع العربية وان الخليل أول من تكلم في العروض قيل له : اننا لا ننكر ذلك بل نقول : ان هذين العلمين كانا قديما واتت عليهما الايام وقلا في ايدي الناس ثم جددهما هذان الامامان ثم قال : « ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف كالذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر ، فكتبوا ذوات الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة اذا كان ما قبلها ساكنا في مثل الخبء والدفء والملء فصار ذلك حجة » .

وحدثنا صاحب الاغاني قال : ان هشام بن عبد الملك سأل خالد بن صفوان وهو من بلغاء الناس ان يصف المثلث الاموي ، الفرزدق والاخطل وجرير ، وكلامه الذي نعرض اليه في مقالنا هذا ، يشبه في كثير من الوجوه النقد التحليلي قال : « اما اعظمهم فخرا وابعدهم ذكرا واحسنهم عذرا واشدهم ميلا ، واقلهم غزلا واحلاهم عللا ، الطامي اذا زخر والحامي اذا زار والسامي اذا خطر الذي اذا هدد قال وان خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق . واما احسنهم نعتا وامدحهم بيتا ، واقلهم فوتا الذي ان هجا وضع وان مدح رفع فالاخطل ، واما اغزرهم بحرا وارقهم شعرا واهتكهم لعدوه سترا ، الاغر الابلق الذي أن طلب لم يسبق ، وان طلب لم يلحق ، فجرير وكلهم ذكي الفؤاد رفيع العماد واري الزناد » ونقلت لنا كتب الادب ، ان السيدة سكينة بنت الحسين وهي اديبة ظريفة كانت تقعد للرجال ويغشى ناديها الشعراء قالت يوما لكثير عزة أانت القائل :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها
باطيب من اردان عزة موهنا وقد اوقدت بالمندل الرطب نارها

اي زنجية منتنة تتبخر بالمندل الرطب الا طاب ريحها ، الا قلت كما قال سيدك أمرؤ القيس :

ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وان لم تطيب

ولا ريب ان ما قالت السيدة سكينة هو نقد حسن يدل على ذوق مرهف وعقل رجيح ومعرفة ناضجة ، ومما تقدم نرى ان النقد قد مشى بين المتأدبين الذين عرفوا سر الكلمة، فنقدوا المبنى والمعنى . وما اطل القرن الثالث الهجري الا اقله حتى نهض الرواة والعلماء ، فوضعوا الكتب في معاني الشعر وطبقات الشعراء والتعريف بمذاهبهم وجملة اوصافهم ، ولم يكتفوا بما كان متبعا من قبل كالاقتصار على نقد بيت واحد من الشعر او للابيات بل نراهم قد عرضوا الى تاريخ حياة الشاعر وشرح بعض نواحيه البارزة في شعره والمواً بمآخذه وعيوب كلامه ومقدار اختراعه وصدقه وكذبه في معانيه ، كما انهم نظروا في اسباب الانتحال وما اتصل بالشعر والادب من عبث المتلاعبين بالشعر واهل السمر من الرواة . فتجرد جماعة من اهل العلم والمعرفة والذوق الادبي فوضعوا كتبا في النقد ما زال ادباء هذا العصر وما قبله يستشهدون بها ويقرونها ، من اولئك القدامى : ابن سلام الجمي في كتابه « طبقات الشعراء » وتطرق فيه الى اهم النظرات الادبية وقد اتخذها المتأخرون والمعاصرون معا دليلا في البحث وبها يدعمون رأيهم وجاء بعده ابن قتيبة فوضع « الشعر والشعراء » ووضع الجاحظ « البيان والتبيين » وفيه كلام عن البلاغة وقيمة الالفاظ واثر فعلها بالعقول بالنسبة لمخارجها وتناول اقسام الكلام نقدا وتمحيصا ، ووضع ابو الفرج الاصبهاني كتابه « الاغاني » وفيه ترجمة حياة الشعراء واشهر الكتاب والمغنين بلغة صافية ونقد حسن وظهرت ايضا المختارات الشعرية منها المفضليات وحماسة ابي تمام وحماسة البحتري والكامل لابي العباس المبرد وفيه ابحاث ادبية وتاريخية ولغوية وامالي القالي لابي علي القالي .

ومن امهات كتب النقد « دلائل الاعجاز » لعبد القادر الجرجاني « واسرار البلاغة » له ايضا ، ووضع ابو هلال العسكري كتاب « الصناعتين » ووضع قدامه بن جعفر كتابه نقد الشعر وجرى فيه على طريقة منطقية بذوق مرهف وعقل ثاقب وفهم صحيح وبيان جلي (1) .

وفي اواخر القرن الرابع الهجري وضع الادباء كتب الموازنات بين الشعراء والكتاب ونشأت المناظرات الادبية ومال النقد الى صورة تناولت الشخصية الادبية والصلة بين الشاعر وشعره كما نرى ذلك في كتاب الموازنة بين ابي تمام والبحتري ، للآمدي ، « والوساطة بين المتنبي وخصومه » لعلي عبد العزيز الجرجاني ، وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني في نقد الشعر ، تناول فيه ما قيل في عهده في الشعر والشعراء من المحاسن والعيوب والقوافي والاوزان وطبقات الشعراء ، ووضع ضياء الدين ابن الاثير كتابه « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » ، وما زال النقد جاريا آخذا بالتدرج في عصرنا هذا وقد اتخذ صبغة علمية تقوم على التحري والمقابلة والموازنة والتحليل النفسي وسبر غور الفكرة التي يرمي اليها الشاعر او الكاتب .

عيسى ميخائيل سابا

---

(1) راجع نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق وشرح عيسى ميخائيل سابا مطبعة الآباء البوليسيين – حريصا لبنان – .

قصة

عودي يا بنتي

بقلم الدكتور محمد حاج حسين

ابنتي الحبيبة ..

طواني الليل باجنحته السدفاء ، وشملني برهبته المخيفة ، فتسللت الاشجان الى قلبي الذبيح تعصره عصرا ، وتسحق بقية حشاشتي التي اتمنى ان تذهب بسرعة لاصعد الى السماء الاقي اباك واخاك انعم بقربهما، واقتات منهما الحب الذي حرمته منذ ان ودعا هذه الدنيا التي تنبض بالشقاء .

وفي غمرة احزاني الآسية تذكرتك فجاة ، ولا ادري كيف حنت روحي اليك ، وتوامضت امامي صورتك المتناسقة ، بكل ما حباك الله من رقة وانسة وحنان وجمال ، فاستعبرت ، وتدفقت دموعي تحرق وجهي المحموم ، ووثبت الى الخزانة ، وانتزعت منها صورتك التي دفنتها فيها، بعد ان فعلت ما فعلت ،وتهالكت عليها اضمها الى الخافق المتاح ، وانهال عليها ضما ولثما ، واغمرها بدموعي ، وخيل الي انك بقربي تناغينني بنبرات صوتك العذب التي طالما اسبغت علي السعادة ، ورحت اتحدث اليك بشجوي ، وابثك زفراتي ، وكنت ترافقينني بنظرة عميقة فيها دفء وحنان وحب ، وشاركتيني في همومي ، وحاولت ابتسامتك الفاتنة التي برع المصور في رسمها ان تشجعني لاغالب آلامي ، واتذرع بالصبر .. بيد انني سرعان ما استيقظت على الحقيقة الدامية ، واحاط بي واقعي المرير يطلق في وجهي قهقهته الساخرة ، فوثبت من مقعدي مسفوعة ممرورة .. حمراء العينين ، شعثاء الشعر ، واسكب آهاتي في اذن هذا الليل ، الذي ناحت به عاصفة جائحة كأنها تعزف انغامها المزمجرة لاحزاني التي لا تنتهي .

ومرت امامي صور كابية لحياتي البئيسة التي ازدحمت بها المصائب وتقت الى انسان ابثه كلومي ، ولا يستطيع احد ان يشاركني هذا الجوى الراعب الذي هدمني القوى .. سواك .. يا حبيبتي سميرة ..

وعدت الى صورتك التي تمثلك وانت في السابعة عشرة من عمرك الغض ، فامعنت فيها تقبيلا ، وغرقت في تأملها .. ولست ادري كيف تسللت الي ومضة من السعادة ، وانا اتأملها ... وطفقت اجاذبها الحديث .. كأنك امامي بلحمك ودمك وذكائك ، ولج بي الحنين ، .. وبكيت يا سميرة .. ورأيت دموعك تسيل على وجهك الجميل ، وصرخت : لماذا تبكين يا حبيبتي ..

ومن خلال زفراتك المذيبة قلت لي : ولماذا لا ابكي يا ماما ؟..

الحق معك يا سميرة .. ان الدموع وسيلتنا الوحيدة للتنفيس عن هذه الاحزان الجاثمة فوقنا بثقلها ورهقها

.. وندت مني صرخة ذاعرة عندما ادركت الحقيقة .. فلست بقربي .. وخيالي المريض هو الذي نسج هذه المحاورة .. فالصورة لا تغني عن الاصل .. وانت بعيدة عني ، لقد هربت مع الشاب الذي احببته واحبك ، وتزوجتما ، وعشت معه في بلدة بعيدة لا ادري من امرك شيئا .. واحسرتاه .. لقد دفنتك حية في ميعة شبابك عندما هربت معه .. وتمردت على ارادتي .. واختلطت علي الاشياء في زحمة غاصة متراكضة ..كأنها اشباح ممتدة يتعاقب الواحد بعد الآخر ليروعني .. وقفزت من مقعدي كالمجنونة .. وتسللت الى باب الدار لالقي بنفسي بين احضان العاصفة العاوية علها تستل روحي لارتاح من هذه الاوصاب التي اضحت قطعة مني كما اضحيت قطعة منها .. ولكنني لم الق بنفسي بين احضان هذا الليل الرهيب ، وعدت الى غرفتي مبعثرة القوى ، مشلولة الارادة ، تتنازعني شتى الهواجس ، ورحت اضرب رأسي بيدي كأنني اود ان ازيل منه هذه الافكار القاتمة التي بلبلته وحطمته ... واخيرا رحمني الله .. فقد اثقل النعاس جفوني عند الفجر ، ونمت ، ولم استيقظ الا عند متوع الشمس .. وعجبت من امري، فقد وجدت اعصابي هادئة وذهني صافيا وعادت الي اشراقة فكري التي حرمتها منذ الفاجعة التي هدتني .. وابتسمت لصورتك الجميلة التي اعدتها الى مكانها تتصدر الصالون ، ورنت الي صورتك في ابتسامة ملؤها الحب .

وربما المي ، عندما وضح لي انني لم افهمك ، ولهذا قسوت عليك .. فهل ترحمينني يا بنتي الغالية .. وتعودين الي لتؤنسي وحدتي ، وتساعديني على قضاء ايامي الاخيرة في هدوء ؟.

ماذا اقول لك يا سميرة ؟.. هل اكتم عنك نبأ الفاجعة التي قصمت ظهري ؟.. ما الفائدة .. لا بد ان تعرفيها .. ولماذا اكتمها عنك ؟. انني ـ وانا اسطر هذه الرسالة ـ اتمثلك ، وقد عرفتيها .. وشملتني رعدة قاسية .. ودب الوهل في اعضائي .. انها ستقصم ظهرك .. كما قصمت ظهري .. ولتكن هذه الاحزان اقوى رابطة تشدنا الى بعضنا برباط لا انفصام له ..

تمالكي اعصابك يا حبيبتي .. وترفقي بنفسك ، واصمدي لهذا الغول الكريه الذي ينتصب دوما امام البشر لينغص عيشهم ، ويحيله الى مرارة قاتلة .. الحزن .. لا تدعيه يحطمك كما حطمني .. انت لا تزالين في فجر الحياة .. وحرام ان يذوي

جمالك هذا الحزن .. وانا اريدك ان تعودي الي ناضرة كعهدي بك .. مؤتلقة كالنور ، متسربلة بجمالك الخالب .. عديني يا سميرة .. الا تدعي هذا الحزن يحطمك رحمة بي .. فكفاني ما لاقيت من مآسي جاهمة .. وارحميني .. قالوا .. الموت حق .. وقدر .. ولا مفر للانسان منه .. عاجلا ام آجلا .. هل تستطيع هذه الكلمات ان تدفع الصبر الى فؤادك الممزق ؟..

لقد مات سمير .. يا سميرة .. ان شعري يقف واعضائي تتمزق ، وقشعريرة باردة تكتسحني .. ما اصغر هذه الكلمة .. وما اعمق معناها.. انها نهاية حياتي..والحفرة الباردة التي وأدت نفسي بهالتتلقفني المأساة ... لا اعتراض لي على مشيئة الله .. ولكن .. هل تستطيع الام التي يغيب وحيدها عن هذه الدنيا ، وهو في فجر الشباب ، الا ان يعتريها الجنون ، او اكثر من الجنون ؟.

انني لا استطيع ان اجمع شتات افكاري .. عادت الي اللوثة .. والقيت بالقلم في عصبية هوجاء ، ورحت في جهشات دامية ، وقفزت امامي صورته.. سمير املي المرتجى، بكل ما حباه الله من خصال كريمة.. وحيوية مشتعلة ، واحاسيس نادية، واحتبست انفاسي ، ونزت الدماء في عيوني ، وتمشى الروع في صدري ، ووثبت الى صورته .. اضمها الى صدري .. لقد كانت تطوف على ثغره بسمة تقطر حزنا .. كأنه ادرك انه سيموت في روقة العمر ... وكدت القي بنفسي من النافذة اتعجل الموت لالقاه .. ونكصت على عقبي.. لانني اخاف ان يحرمني الله لقاه .. اذا اقدمت على الانتحار .. ما اشد عذابي حتى الموت .. لا استطيع ان اناله برغبتي .. وانكفأت الى مقعدي ، وارخيت لدموعي العنان .. وقالوا : ان الدموع تنفيس عن الاحزان ، ولكنني الفيتها حبالا من نار تشد على خناقي بقسوة رهيبة .. لا تصدقي قولهم يا سميرة .. فقلب الام يموت عند موت فلذة كبدها ، ولا تستطيع اية قوة في العالم ان تدفع اليها التسرية ولو لحظة واحدة ..وغبرت على فترة طويلة ، واتاني هذا النشيج المضيض .. ثم استعدت وعيي ، وعدت الى القلم لاسطر لك هذه السطور راجية ان تعودي الي — وبسرعة — يا حبيبتي سميرة .

لم يمت سمير بين ذراعي يا سميرة .. لقد مات في الغربة ، وكنت انتظر نهاية السنة الجامعية بصبر ذاهب ، ولوعة مشتاقة ، ورحت اعد الايام ، والدقائق ليعود الي مزهوا بشهادة الهندسة لتقر به عيناي.. وذات يوم كليح مربد السحنة ، وافتني برقية من الجامعة الافرنسية التي يتعلم بها .. وصعقت .. لقد كانت تحمل الي — ببساطة — نبأ وفاته .. واظلمت الدنيا في عيني ، وترنحت من هول الخبر ، وازدحمت في راسي صور متلاحقة في موكب عريض ، واختلط علي الامر .. وخيل الي ان البرقية تحمل الي التهنئة بنجاحه .. فقد كان — كما تعلمين — دوما في الطليعة .. وتراقصت الفرحة في اعماقي ، ومنيت نفسي الاماني الحسان .. عما قريب سيعود الي ليبدد وحدتي ووحشتي .. وحلمت بالمستقبل الريان .. وفجأة استنارت بصيرتي .. وعدت الى البرقية السوداء .. لقد كانت واضحة بعيدة عن كل لبس ، فقد مات فجأة بالسكتة القلبية، وسيرسلون جثمانه بالطائرة ويبدون جزعهم على هذه الفاجعة.. وضربني الذهول ، وتحجر كل عضو بي ، وامتنع كل عرق عن الاختلاج ، ثم رحت في غيبوبة بعيدة ..

واسعفني الطبيب ، وفتحت مغاليق عيني ، لارى عمك وخالك وعمتك وخالتك امامي .. وقلبت النظر المذعور فيهم كأنني استفسر عما حدث ، وماذا يريدون ..

واستطعت ان اقول بصوت واه : ماذا تريدون ؟

واقترب عمك مني ، والدموع تنهمر من عينيه ، وهمس في اذني : ام سمير .

وتطلعت اليه ، ولم اره .. كنت انظر في الفراغ البعيد ..

— ام سمير .. ارجوك ..

وزعقت : ماذا تريد ؟.

— ارادة الله يا ام سمير ..

— ارادة الله ..

— القدر ..

وصرخت : ماذا تريد ؟. ما معنى كلامك ؟.

— ام سمير .

وقاطعته : ماذا حدث ؟. اخبرني.

— مشيئة الله يا ام سمير ..

وصحت : لماذا لا تصارحونني ؟.

— سمير انتقل الى رحمته تعالى..

وتصدع كبدي ، وادركت الحقيقة وتطلعت اليهم بعينين جامدتين ، وصرخت : انتم تكذبون .. سمير.. سيعود الي ..

واقتربت مني خالتك ، ومسحت بيدها على راسي المحترق ، وهمست في اذني : ترفقي بنفسك يا اختي.. القدر لا يعاند ..

— ولماذا اخذ القدر مني ولدي ؟.

— انت مؤمنة .. الاجل محتوم..

ووثبت من السرير راعشة الفؤاد، ربداء السحنة ، واردت الاندفاع من الباب .. لا ادري الى اين .. وتشبث بي عمك وخالك وخالتك.. وحملوني الى سريري ، وانا اضربهم بقسوة ، واصرخ فيهم : كذابون . كذابون .. سمير لم يمت .. كلكم موتى .. وحبيبي سمير وحده الحي..ورحت في غيبوبة مرة اخرى .. وقرر الطبيب انني اصبت بصدمة عصبية .. وهل في الدنيا صدمة اقسى من هذه الصدمة ؟ ليتني مت يا سميرة ، ما اعذب الموت عندما نحتاجه ، ولكنه لا يأبه لندائنا .. بل يعدو على من لا يريده ..

ولازمت الفراش اياما عديدة .. لا اعي من امري شيئا ولا اصيب من الطعام الا ما ترغمني خالتك عليه ..

وكذبوا علي يا سميرة .. كنت اسأل خالتك ، وانا اتخبط في مرضي : متى يعود سمير ؟

– بعد ثلاثة اشهر .

– لماذا بعد ثلاثة اشهر ؟

– نحن في نيسان ، ولن ينتهي الامتحان الا في اوائل تموز ..

– الم تقل البرقية انه مات ؟

– بعيد الشر يا اختي .. من اين تأتين بهذه الكلمات .. سمير في صحة ممتازة .. ومشغول بدروسه .

– ومن قال لك هذا ؟ ..

– البرقية ..

– واين هي ؟

– الم تمزقيها ؟.

– كيف ؟.

– لقد مزقتيها عندما لم تفهميها .. وكنت ساعتها في حالة نفسية اليمة لا تعي من امرك شيئا .

واغرق في غيبوبتي ، ثم استيقظ .. لاسأل عن سمير .. ويعيدون على مسمعي نفس المعزوفة .. نفس الاكذوبة .. حتى اعتقدت ان موته ليس سوى نسيج خيالي المريض .. ما اجمل هذه الامنية لو تحققت .. والواقع .. ان الاخبار السيئة هي دائما الصادقة .. ولماذا ازعجك يا حبيبتي ؟. اخوك مات بالسكتة القلبية .. ونقل جثمانه الطاهر الى دمشق، ودفنوه دون ان يرحموني ، ويعلموني لاتزود منه بالنظرة الاخيرة .. وعللوا عملهم هذا عندما ناقشتهم الحساب ، بعد ان استعدت وعيي .. بان حالتي الصحية ما كانت لتساعدني على تلقي هذه الصدمة القاسية .. لقد حقدت عليهم ، ولعنتهم .. بل ذهبت الى اكثر من هذا – واخجلتاه – فقد هجمت على خالك وعمك ، وخالتك وعمتك ، ورحت اضربهم ، وانشب اظافري في وجوههم .. وانا ابكي بكاء مرا .. ولكن هل يجدي البكاء ؟ هل ترد علي الاحزان ولدي ؟ لقد فقدت اباك ، وانا في الخامسة والعشرين من عمري .. في ذروة سعادتي .. سحقتني المأساة ..

فانتزعت مني اباك الشهم ، السري الوجدان، الطيب القلب بعد ان امضيت معه سبع سنوات كانت احلى من الاماني العذاب .. وكان حصاد حبنا انت وسمير .. واخيرا في ذروة انتصاري .. عندما اوشكت ان ارى الثمرة اليانعة الدانية القطوف التي سقيتها دم قلبي .. فاذا بها تتساقط، وتتبدد في الهواء .. كما تجتاح هذه العاصفة في هذا الليل كل ما يعترض طريقها ..

لقد تألمت يا سميرة .. وكل آلامي لم تستطع ان تعيد الي سميرا .. وكذلك لم تستطع كل هذه الفلسفات الجوفاء التي سكبها الناس في اذني ان تذهلني عنه لحظة واحدة ، فقد جابهت قسوة الحياة بالحزن، والحياة اقوى من الحزن .. انها كالسيل تجرف كل شيء في طريقها بيد انها لم تستطع ان تجرف احزاني .. وبصراحة لا اريد ان تزايلني .. فانا اعيش على الذكرى واهيم وراء الخيال اتتبع سميرا في جميع مراحل حياته .. انه الاغنية التي تترنم بها شفتاي المحترقتان .. وستظل هذه الترنيمة متفاي من هذه الحياة حتى اذا عدا علي الموت ، وصعدت الى السماء .. كان همي الالتقاء بسمير ..

يا سميرة .. عودي الي ، فور تلقيك هذه الرسالة .. فانت البقية التي تجعل لحياتي معنى .. وزوجك اضحى بمثابة ولدي الحبيب .. ليس لي غيركما بعد الآن .. انتما عزائي في هذه الدنيا الرفقة المشارب ، وانا على ثقة انك ستهرعين الي مع زوجك لانشق منكما عبير الحنان والحب .

لندفن الماضي يا سميرة .. ولنهل عليه اكداسا من الرمال .. واعترف لك انني بعد فجيعتي باخيك حاسبت نفسي حسابا عسيرا ووجدت انني قسوت عليك اكثر مما يجب .. ولعل دموعي التي ذرفتها معبرة بها عن ندمي خير شفيع لي عندك يا سميرة .. لقد كنت معصوبة العينين عندما جاء زوجك، وطلب يدك .. ورفضت بشدة، واتيت الي يومها ناصلة اللون، واجفة الجسد ، وقلت لي ، والحياء يخضب وجهك الجميل : لماذا رفضت احمد يا ماما ؟

– سيتقدم اليك خير منه بكثير .

– ولكني لا ارغب في خير منه .

– انت لا تعرفين مصلحتك .

– بل اعرفها .

– انا ادرى بها منك .

– لا اريد غير احمد ..

– لا يا سميرة .. انت رائعة الجمال وثرية .. وهو فقير .. لا مركز له ..

– لقد تخرج هذا العام من كلية الحقوق ، ووجد وظيفة محترمة .. وسيعرف كيف يشق طريقه .. انه مثال النشاط والاخلاص والرجولة .

– يا سميرة .. هل ترضين به زوجا .. مع دخله البسيط .. الذي لا يكفيك ثمن ثيابك ؟

– انني راضية ان اقاسمه مر العيش اذا كان هذا مرا كما تقصدين.

– لن تستطيعي يا سميرة ..

– انا لا اريد الثياب .. ولا الحياة المترفة .. اريد احمد .. انه زميلي في الدراسة ، واعرف اخلاقه الفاضلة ورجولته ..

وزعقت بك : اذهبي الى غرفتك .. لا تكلميني عنه مرة ثانية .. انه غير جدير بك .. ولا هو من اصلك .. ان خطابك كثيرون .. وما علينا الا الاختيار ..

وانسحبت الى غرفتك .. محزونة القلب .. ولم اقدر حزنك .. لانني ما كنت ادري يومها معنى الحزن الكبير .. وفي اليوم الثاني اغلظت لك القول ، وهددتك بالويل اذا حاولت الاتصال به .. لقد ادركت ان الحب جمع بين قلبيكما .. ولكنني لم ادرك ان منطق القلب غير منطق العقل .. ورأيتك ذات يوم تفرين من بين يدي .. لتعقدين قرانك رغما عني على احمد .. وذهبت معه الى مقر وظيفته في البلدة الصغيرة النائية ، وجرفني حقد هائل عليك ،

الم ..

اني نهلت من عصارة الالم
نهلت حتى عقني الندم
ثملت حتى لم اعـد
استشعر الوجود
ولفني في ركبه الفراغ والعدم
وجف في قيثارتي
اللحن والنشيد
فلا تقولوا اين انت ؟
انني شهيـد ؟
لا تسألوا ضحية الالم !

قد كان في مسراي لي
درب به اسـير
وكان في قارورتي
الطيـب والعبـير
وكنت في ذرى الحقـول
بلبـلا يطـير
محلقا كالامل النضير
في عالم كبير
وكنت استوحي الجماد
ارعش الصخور
واليوم لا زهور
لا عطــور
قارورتي حطمها الالـم !

واليوم والربيع
يضحك والنسيم
يرقص في حديقتي
والليل والنجوم
تشع والغيوم
مسدلـة على القمر
فضية تعبيء الشعاع
وترسل الشراع خلفه شراع
لا وحي في شبابتي
لا لحن لا غناء
شبابتي اخرسها الالم !

دعوا الغريق ضائعا
في لجة الحيـاة
دعوه لا زورق
لا مجداف في يديه
دعـوه دون ان
تلقفـه الضفاف
ودون ان يعود
للرفاق عزفه الرخيم
ودون ان تورق في
صحرائـه الورود
دعوه ثم وحده في سجنه البعيد
يعيش في مهامه جدباء في قيود
مفـاوز
غابات شوك جهمـة
سـدود
صنعهـا الالـم !

الرياض   حسن عبد الله القرشي

وتمنيت لك الموت ، وانتزعتك من ذهني الى الابد ، وحسبتك ميتة .. لقد كانت الضربة التي سددتيها لي قاضية .. وخجلت من لقاء الناس ، وعنفني عمك وخالك على غفلتي .. وخيم الحزن على اسرتنا .. واخيرا قال عمك : لننسهـا .. لنحسبهـا ماتت ..

ومضى على فراقك ستة اشهر في خلالها لم يذكرك إنسان.. حتى مجرد اللهفة عليك اذا ومضت في اعماقي اخنقها في مهدي .. وعانيت من هذا آلاما عارمة كنت اتحملها بصبر عجيب .. وما لنا .. وهذا الكلام الطويل .. ولكن يجب أن تفهمي ان قسوتي عليك كان منبعها الحب لانشد لك زوجا ينتمي الى طبقة ارستقراطية ، وينعم بمركز وضيء .. ولكن فاتني شيء واحد .. ان هـذا لا يجلب السعادة .. وكانت السعادة في نظري زائفة .. لا تتأتى الا بالمال والحياة والمركز .. وبعد فجيعتي باخيك استنارت بصيرتي ، وادركت ان كل هذا اباطيل ، وقبض الريح .. ولهذا ابارك زواجك ، وانثر عليه الورود ، فانا ــ الآن ــ لا يهمني سوى سعادتك .. وانني على مثل اليقين ان زوجك الطيب يوفر لك هذه السعادة التي اتوخاها لك ..

عودي الي يا سميرة .. معزوجك .. ابني الغالي .. ان مكانكما في اعماقي ، وفي بيتي .. ولن يستطيع احدا انتزاعكما مني .. الوحدة رهيبة في عذابها .. ولن تتركي امك فريسة لها .. عودي الي فانت كل املي في هذه الدنيا .. « امك » .

مكة المكرمة   محمد حاج حسين

مكانة المرأة لدى المجتمعات البدائية

ترجمها عن الانجليزية مبارك ابراهيم

***

قد جرت العادة منذ الزمان القديم ان يتخذ الناس مكانة المرأة مقياسا يقيسون به الفروق التي تقوم بين مختلف حضارات الشعوب. فترى السائل المتقصي يسأل : هل للنساء حق التصويت ؟ وهل يجوز لهن ان يصبحن طبيبات او محاميات ؟ وهل لهن حق التملك ؟ فاذا كان الجواب عن هذه الاسئلة بالنفي كان الشعب الذي تعيش فيه تلك المرأة في الدرك الاسفل من سلم الآدمية . .

ولكن حدث في الزمان الاخير وبعد ان زادت معارفنا الانثروبولوجية (اي المتعلقة بالتاريخ الطبيعي للاجناس البشرية) ان بدت امارات الشك تتزايد لا من حيث صلاحية طرائق التقصي القديمة وحسب بل من حيث الخنوع المزعوم المنسوب الى النساء بين الاجناس التي توصف بالبدائية . .

ولكي تزول الشكوك اصبح لزاما على الباحث ان يكشف عن اتباع طريقة التعميمات الشاملة التي هي في العادة واهية الاساس . وان يلتزم بالبحث وراء الحقائق التي اثبتتها البحوث التي اجراها العلماء في صبر ودأب .

ان اقوام استراليا الاصليين هم — بحكم ما يقرب من الاجماع — احط الاجناس البشرية وادناهم مقاما . وتدعيما لهذا الرأي يزعم الزاعمون ان المرأة السوداء (اللبرا) من سكان استراليا الاصليين هي من دواب الحمل . وهي لا تلقى الا التحقير وسوء المعاملة . . وتثقل كواهلها اعباء العمل الشاق المضني . . كما يزعمون ان الرجل الاسود — وهي تسمية خاطئة ، اذ انه ليس بالاسود ابدا — يصيد صيد البر والبحر . ثم هو يشتبك في المعارك . ثم هو يطوف في الآفاق . بينما المرأة تقوم بدور الزارع والباني والخزاف والنساج ودباغ الجلود وصانع السلال . وذلك فضلا عن مهنتها التي لا تفارقها بحكم تكوينها الفطري والتي تلتزمها في كل البيئات الحضارية وهي مهنة الامومة والحضانة والتمريض . .

وهذا الخنوع الشامل المزعوم لا يقره — بل ينكره كل الانكار — عالم من الثقات في علم الاجناس . واستاذ علم الاحياء في جامعة ملبورن . وصاحب المؤلفات العديدة في دراسة القبائل — وهو سير بولدوين سينسر ١٨٦٠ — ١٩٢٩ .

ان هذا العالم يقرر ان الحياة التي تحياها المرأة من سكان استراليا الاصليين هي حياة افضل بكثير من تلك التي تحياها وتلقاها مئات وآلاف من النساء من ساكنات الاكواخ في الاحياء الفقيرة في مدن بريطانيا وحواضرها . .

وهو يؤكد ان نساء استراليا المتبديات لا يلقين المعاملة السيئة القاسية وانهن اذا كن يعانين من ضيق العيش فان الرجال يشاركنهن هذه الحياة الضنك . . ففي زمن الايسار يجد الرجل والمرأة دائما ما يؤديانه من عمل وفي زمن العسرة فان نصيب الرجل يكون مكافئا لنصيب المرأة من الفقر والعوز . .

والمرأة الاسترالية المتبدية تختلف عن اختها المتحضرة في انها لا تقضي الساعات الطويلة في حياكة الملابس ورفو الجوارب . ذلك لان الرجل هناك هو — بوجه عام — لا يعرف الكساء . . وهو اذا اكتسى فانه يكتفي بحزام يتمنطق به . وعذبة من العذبات يزين بها جبينه . . اما كساء المرأة فقوامه حزام من لحاء الشجر يزيد عليه عند نساء بعض القبائل مئزر من فراء الحيوان المسمى « ابو سوم » (وهو حيوان من ذوات الجراب) .

والعمل المنزلي في مخيمات قبائل السكان الاصليين هو في العادة اقل من القليل . ويمكن ان يكون من الحقائق المقررة ان الاطفال هم المشكلة الكبرى .

والحب بمعناه الشائع عندنا غير معروف عند اولئك الاقوام الا في القليل الاقل . والزوجات اللاتي يأتين بفاحشة يلقين اشد العذاب ويحرقن بالنار . . ولكن الجروح الغائرة المتفجرة التي تشاهد في اجسام النسوة — ولقد عدها العالم سير بولدوين سينسر مرة فالفاها اربعين جرحا غائرا وكأنها الاخاديد وذلك فيما بين السرة الى ما فوق الثديين . ان تلك الجروح ليست اثرا من آثار سوء المعاملة اوقعها بهن ازواج غاضبون . انما هي جروح احدثنها بانفسهن وصنعنها بقطع من الحجر القداح او بشظايا من الزجاج ثم عمقنها وثبتنها بالرماد وذلك بغية ان يشهدن العالم على مدى وفائهن وشدة حزنهن على الازواج الذين اغتالهم الموت . ووارتهم القبور . . وكذلك يفعل الرجال بانفسهم . ولكنهم يفعلون ذلك ابتغاء الزينة والتجميل . .

ثم نجيء الى عملية الحمل وهي العملية ذات الخطر لدى المرأة المتحضرة فنجدها عند المرأة الاسترالية المتبدية عملية لا يؤبه بها . ولا تسبب لها الا القليل من العنت . . وقد حدث احد الكتاب فقال ان قبيلة من القبائل الاسترالية اذا ارتحلت واحست احدى نسائها بوجع الولادة فانها لا تتوقف في سيرها ولا تتريث لمثل هذه المهمة التافهة . مهمة الولادة . حتى اذا وضعت المرأة وليدها لفته في قطع من الجلد ثم استأنفت سيرها وهي تدلف مع الباقين .

وعلى الرغم مما اسلفنا فانه لا ينبغي ان يخطر بالبال — مهما اشتدت بنا المغالاة في تقدير مزايا الحياة الفطرية — ان نصيب (اللبرا) او المرأة الاسترالية المتبدية هو مما تحسد عليه . . ذلك لانها تشارك زوجها ضروب الاخطار وتقاسمه الوان الحرمان التي يتعرض لها — وهي جد

كثيرة — . وهي تحمل اثقاله . وهي تؤدي الاعمال المنزلية الشاقة . وهي الاعمال التي تورث الملل برتابتها .

ومن الوان المعاناة التي تلاقيها تلك المراة انها تصبح زوجة في اول سن البلوغ . وقلما يسمح لها باختيار الزوج . وكذلك فان من الجائز لهذا الزوج ان يقرضها (قرضا سيئا) دون ان يستأذنها . فاذا مات هذا الزوج قضت المراة فترة طويلة تقوم فيها بواجب الحزن التفكيري. ثم تصبح بعد ذلك — ارادت او لم ترد — زوجة لاخيه ..

فلا غرابة اذن اذا رأينا النساء الاستراليات الفارعات القوام وقد تمايزن بالوسامة والبضاضة — وهن فتيات — يصبحن اذا تقادمت عليهن الليالي — وقد تقوست ظهورهن، وتقفعت اكفهن ، وتقبضت سواعدهن ، وترهل لحمهن بعد اكتناز وامتلاء .. حتى اذا بلغن سن الخامسة والعشرين فقدن سحر الشباب وفتونه . فاذا امتدت بهن السن الى الاربعين كن لحما على وضم .. ولا تبلغ سن الخمسين منهن الا القلة النادرة ..

ويتحدث هنري هافلوك السن ١٨٥٩ — ١٩٣٩ (عالم واديب انجليزي . درس الطب وترك الاشتغال به ليفرغ لابحاثه في علم النفس وفي دراسة الجنس من حيث علاقته بعلم الاجتماع . ومن مؤلفاته كتاب «سيكولوجية الجنس» وكتاب « عالم الاحلام ») .. يقول هذا العالم ان المراة في افريقيا القبلية لا تختلف احوالها عن احوال المراة الاسترالية المتبدية فهي تعنى بتربية الاطفال وهي تقوم بكل عمل ينبعث من المواقد والافران . اما الرجل فانه يعنى بكل الاعمال التي تتطلب قوة في البدن وصبرا عند تجرع غصص البلايا ..

ويقول « ج.س. كلاريدج » ان المراة الكونغولية تتارجح كذاب رقاص الساعة بين فلاحة الارض وبين العناية بالاطفال . وهما الاصلان الثابتان في اهتماماتها . فهي منذ شروق الشمس تثير الارض وتسقي الحرث . وتكاد تحمل جرتها وتعود بها ملأى وقد استوت الجرة فوق راسها في اتساق بديع .. والى هذه الطريقة في حمل الجرار ينسب العارفون اعتدال قوام اولئك النساء .

والمراة الافريقية تنتج الطعام ثم تطهوه . وهي تبني كوخها . وهي ترم ما تهدمه الامطار والرياح .. والمراة الافريقية تعد عملية مالية مذهبة الحواشي والذيول فهي تعود على زوجها بفائض يتمثل في انجاب الاولاد وتأدية الخدمات .. ولها فوق ذلك ميزة اخرى هي انها اذا ماتت فان لزوجها الحق في ان يطلب الى ابيها — دون ان يدفع مهرا جديدا — ان يزوجه احدى بناته غير المتزوجات ..

ويؤكد بعض السياح ان من باطل القول وزوره ما يزعمه الزاعمون من ان المراة الافريقية المتبدية لا تعدو ان تكون دابة من دواب الحمل . ووسيلة الى اشباع شهوة الرجل، وضحية من ضحايا البطالة والكسل ..

ففي شرق افريقيا مثلا لا يجد الباحث دليلا يؤيد الزعم القائل ان النسوة يقتلن انفسهن بالعمل الشاق المضني .. واقسى ما يمكن ان يقال ان البعيدات منهن عن الاسواق والمتاجر يشغلن انفسهن بالدق في الهاون وبغربلة الحنطة وطحنها .. وحتى في هذه الحالة فانهن يكن اسعد بكثير — كما يؤكد احد الباحثين الالمان — من كثيرات من ربات البيوت في المانيا ..

فاذا جئنا الى سكان الكهوف من اقوام (الفدا) وهم اقوام بدائيون يقطنون الغابات في جزيرة سيلان . وهم بقايا اسلاف مضوا . وعددهم آخذ في التناقص . والمعتقد انهم سلالة السكان الاصليين لتلك الجزيرة.. اذا جئنا الى هؤلاء الاقوام الفيناهم اليوم من المنبوذين . وان لا فرق بين طرائق عيشهم وطرائق عيش الحيوانات الآبدة التي تشاركهم العيش في الغابات.. وعلى الرغم من ذلك فانهم ليسوا فقط من القائلين بعدم تعدد الزوجات بل ان الخيانة الزوجية غير معروفة عندهم .. والنساء عندهم يستمتعن بالمساواة التامة بينهن وبين الرجال في كل ناحية من النواحي ..

وانا لنذكر كذلك اقواما من السكان الاصليين في اليابان هم اقوام (الاينو) حيث نجد المراة تستمتع بمكانة ممتازة تتساوى فيها الى حد بعيد مع نساء شعوب اخرى كثيرة تعد ارقى منها بمراحل في درجات السلم الحضاري .. ان تلك المراة اليابانية المتبدية تظفر بين بني قومها بالاحترام والتوقير وهي دائما الآمرة المؤمرة في شئون بيتها ..

ومن ناحية اخرى فانه مما يثير العجب ان هناك تقليدا قديما عند اولئك الاقوام يمنع نساءهم من ممارسة تلك العادة القديمة قدم الزمان وهي عادة القيام بفروض الصلوات يتوجهن بها الى الآلهة من الاسلاف والاجداد . وذلك ظنا من اولئك الاقوام ان النساء بما جبلن عليه من ارتكاس في الطبائع قد يسعين بصلواتهن الى الحاق الاذى بالرجال وبخاصة بازواجهن ..

وفي جزر البحار الجنوبية نرى من الامور الثابتة ان النساء يستمتعن بقدر كبير من الاستقلال . ويقول البروفسور كاسير مالينوسكي ١٨٨٤ — ١٩٤٢ (وهو عالم بولندي) ان النساء في بعض جزر ميلانيزيا يتاح لهن ان يبلغن مراكز سامية في مجالس القبائل .

والقول الذي يقال بصيغة التوكيد والذي كثيرا ما تتردد أصداؤه في مختلف الانحاء وهو انه في الامم التي تتردى في مهاوي الضعة من الوجهة الاجتماعية تكون منزلة المراة على مستوى ومنزلة دواب الحمل هو قول يمكن ان يصح عند بعض الاجناس فقط . بينما نرى المراة عند كثير من الاجناس الاخرى المتبدية من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية تلقى قدرا كبيرا من التوقير والتكريم والرأي القديم القائل بان الانوثة لدى الاقوام البدائية انما هي مرادف للعبودية والخنوع هو قول لا وجود له ..

القاهرة **مبارك ابراهيم**

من ادباء الفردوس المفقود

عيسى السفري

بقلم البدوي الملثم

ولد فقيد الادب المرحوم عيسى السفري في « الرملة البيضاء » عام ١٨٩٤ وتلقى دراسته الثانوية في مدينة ـ يافا ـ وزاول التعليم عدة سنوات في المدارس الاميرية ، كان خلالها المثل الصالح للمربي القدير الواعي في اساليب تدريسه النشء الصاعد وتربيته على الاعتماد على النفس ومواجهة المصاعب والاهوال بثقة وعزم وايمان. وتركت اساليبه هذه آثارا ملموسة في نفوس طلابه ، وما زال الاحياء منهم يذكرون ما لاستاذهم السفري من اياد بيضاء على توجيههم توجيها صحيحا .

واشتهر الفقيد كاتبا واديبا ووطنيا انتضى قلما عنيفا دافع به عن ـ فلسطين ـ موطنه المغصوب ، وعن شعبها المغلوب ، ودعا الى محاربة الانتداب والصهيونية ، وضحى بالوظيفة ، وهي مصدر رزقه ، دفاعا عن موطنه الملتهب ، والتحق بقلم تحرير «فلسطين» اليافية لصاحبها المرحوم عيسى العيسى ، وانبرى يكتب المقالات الضافية على صفحاتها ، محذرا قومه من لؤم المنتدب وغدره ، وداعيا الى التنبه واليقظة لالاعيب العدو وخططه الجهنمية المفزعة !

واسس الفقيد مكتبة في يافا زاد عليها مطبعة تجارية وواصل الكتابة في الصحف الفلسطينية غير مبال بالمخاطر التي استهدف لها ، واخيرا اعتقلته السلطات البريطانية وحملته الى سجن « مزرعة عكا » وامضى في معتقله هذا ثلاثة شهور عاد بعدها الى سابق جهاده في حلبة الوطن المظلوم ، من الاستعمار الغشوم !

وبعد وقوع النكبة ، وتشتت الاهل والاحبة ، نزح مع افراد اسرته الى مدينة السلط ، من اعمال الاردن ، وامضى فيها قرابة عام مسريا عن نفسه المحروبة بكتابة الدراسات والمباحث عن قضية فلسطين وتطوراتها بعد ان انهت بريطانيا انتدابها على الاراضي المقدسة ، وسلمتها لقمة سائغة للعلج الاسرائيلـي !

وفي مطلع عام ١٩٤٩ نزح السفري الى عمان واخذ يحرر في جريدة « فلسطين » ـ ابان الفترة التي صدرت خلالها في عاصمة الاردن ـ مواصلا كفاحه في تصور مآسي امته بعد وقوع النكبة ، وذات ليلة ، وهو مكب على عمله في قلم التحرير هوى النسر جثة هامدة اثر نوبة قلبية حادة اودت به عام ١٩٤٩ .

من آثاره القلمية : وفي يافا المغصوبة صنف الفقيد كتبا قيمة زود بها خزانة القضية الفلسطينية منها : « رسالتي » وهو مجموعة من الشعر العذب المنثور في الادب والوطن والفن والاجتماع وكتاب «دماء ودموع» وكتاب « فلسطين العربية ـ بين الانتداب والصهيونية » وهو سجل عام للقضية الفلسطينية في عشرين سنة .

وللفقيد آثار لم تطبع منها كتاب «العرب المتنصرة في الجاهلية والاسلام» .

نموذج من نثره : ولتعلم اي قلم خصب كان قلم السفري اختار لك مقال « بين فلسطين وشقيقاتها » وقد استهل به فصول كتابه «رسالتي» المطبوع في يافا عام ١٩٣٧ :

جلست وحدي كارملة ، انا العظيمة في الامـم .
وكثكلى فقدت بنيها ،
قرح جفوني البكـاء ،
وكلت عيناي من النظر الى عوني الباطل ،
أبت نفسي التعزيـة ،
لان حماي أستبيح ، وبيع ميراثي للغرباء !
الـي يا شقيقـاتـي !
أغثنني يا بنات ابي وامي !
فقد سدت في وجهي سبل النجـاة !

*

استباح القوي ارضي ،
وملك شذاذ الآفاق جوانب بيتـي !
اما ابنائي البعيدون عني ، فيحنون للعودة الي ،
أريد ان اضمهم الى صدري فلا استطيع ،
لان قوة تحول بيني وبينهم !
لا لشيء سوى انهم ليسوا من شعب اسرائيل !
لم يجدني النوح يا شقيقاتي !
ولم يرفه عني البكاء ، يا بنات ابي وامي !
ان الطبيعة تكره الضعفاء !

*

هيمن الغريب على مقدراتي ،
وضع الاجنبي يده على منابع ثروتي !
اشتد القحط ، وعم البلاء ، وشمل الضيق كافة شعبي !
انتزعت من فم العامل لقمته ،
ولم يجد الفلاح ما ينقذه من محنته !
لعبت شهوة المال بنفوس ضعيفي الايمان من ابنائي ، فسهلوا للدخيل « أرضـي » !
فلم يعد مكـان لذراري !
لا تجزعن يا شقيقاتي !
ولا تضطربن يا بنات ابي وامـي !
فلكل شيء حـد لا يتجاوزه !

*

شعب ، تنبذه كل الشعوب ،
يحل محل شعب ، تآمرت عليه جميع الامم !
فاذا ما تكلم ، اخرسته القـوة ،
واذا ما صاح ، صمت الآذان عن سماع الحق !
حرم كل شيء ، حتى حق التظاهر بالشكوى !
لم يعد لكلمة ـ عدل ـ موضع في قاموس الانسانية !
لست يائسة يا شقيقـاتـي !
ولا مطمئنـة ، يا بنات ابي وامـي !
فشدة الضغط تولد الانفجـار !

*

هوذا مدينة السلام تفقد سلامها !
الارض المقدسة تتمخض بالثورات !
لان ابناءها يحكم عليهم بالتشريد ، وانسالهم يسلمون للفناء !
تنهد المهد ، تزلزلت اركان الصخرة !
بكت جبـالي دمـا ،
رويت اوديتي بالنجيع الاحمـر !
زرعت سهولي ، لا بالفلال والكروم ، بل بقبور الشهداء !
اطربن لي يا شقيقـاتـي !
هنئنني بضحاياي يا بنـات ابي وامي !
فقد شقت امامي طريق الحيـاة !

عمان — البدوي الملثم

دستويفسكي وصرع العالم الحديث

بقلم بولتزر

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

« كان دوستويفسكي رجلا مريضا ، لان مصيره بصفته كاتبا قدر له ان يصور مرض العالم المحيط به . ففي صرعه تركز صرع المدنية الحديثة . » هكذا كتب ولتر موشغ، احد المتتبعين الثاقبي البصر للمشاهد الادبية، في كتابه «تاريخ الادب المأساوي» هذا القول السديد مجفل كان الاجفال ، وبهاؤه يخطف الابصار ، بحيث ان القارىء محمل حملا ، بغير ارادته ، ان يفرك عينيه . وايا كان الامر ، فهو يبدأ يسائل نفسه ، بعد تأمل وتمعن ، اهذا السهم مصيب، كما هو بهي لامع ؟ واذا تقبلنا احقيته ، فهل يتضمن الحق كله ؟

اصبح صرع دوستويفسكي رمزا لاستشهاد فنان العصر الحديث المبدع ، كما كان الامر بالقياس الى اذن فان كوخ او جدران الفلين التي كانت تحيط بسرير بروست المريض. ومع ذلك فلا يزال الكثير من الاسرار يكتنف (القضية) حتى يومنا هذا . فان اي ، ه. كار في دراسته لدوستويفسكي المنشورة سنة ١٩٣١ - يلخص استنتاجات مقالة مستندة الى مصادر روسية ظهرت في « سلافونيك اند ايست يوربيان ريفيو » قبل ذلك بسنة واحدة - ويحدد هجوم الصرع على دوستويفسكي بنحو سنة ١٨٥٤ ويقول : « ان الاضطرابات العصبية التي كان يتألم منها في بطرسبرغ قبل نفيه الى سيبيريا ، لم تكن لتعتبر لا من قبله ولا من قبل اصدقائه ذات طبيعة صرعية ، وليس من دليل على انها كانت كذلك » .

ومن الوقائع اننا لا نجد ذكرا لاسم هذا المرض بالذات في بواكير رسائل دوستويفسكي . هذا من جهة ومن جهة اخرى فهذه الرسائل تحتوي على شواهد كثيرة تنبىء باصابته بالوساوس والوعكات العامة وما يدعى Lebensangst الوبيل . ففي رسالة الى اخيه ميخائيل مؤرخة في الاول من شباط ١٨٤٦ كتب دوستويفسكي (وهو في الخامسة والعشرين) قائلا : « كنت مغرما ببانيفا غراما جديا ، وهو الآن يتلاشى ، ومع ذلك فانا لا اعلم به بعد . صحتي منحطة انحطاطا فظيعا ، واعصابي ممزقة متناثرة وانا اخشى من هذه الحمى العصبية او تلك . انا لا استطيع ان احيا حياة عفة ، لانحطاطي الكلي . » لا كلمة واحدة عن الصرع ، بل انك واجد تماثلا بين وضعيته الاخلاقية والجسمية بين كل جملة واخرى . ولست بحاجة الى معرفة عظيمة بالتعمق النفساني لتشخص وجود مركب الاثم واضحا في هذا الشاب العصابي .

وبعد سبع وعشرين سنة من ظهور مقالة كار وكد افرام يارمولنسكي في كتابه عن سيرة دوستويفسكي ، الذي استند جزئيا كذلك الى المصادر الروسية ، على ان أول هجمات الصرع حدثت سنة ١٨٤٦ واستمرت حتى نهاية حياته . فحساسية دوستويفسكي المرهفة وطبيعته المبغضة للبشر ، ومزاجه القلق ، وشخصيته باسرها ، بوساوسها وحماسته الدينية المتطرفة وميلها للبحث عن ملجأ في عالم الاحلام يحميها من الواقع ، كل هذه الامور ، من وجهة نظر يارمولنسكي تتفق كليا مع الظواهر السريرية للصرع النموذجي .

والتناقض بين هذه الحال وبين تشخيص كار المبكر يمكن تفسيره بان يارمولنسكي فضل الاعتماد على الشواهد المستمدة من معاصري دوستويفسكي ، وخاصة من قبل صديقه وطبيبه يانوفسكي ، بدلا من حصر نفسه في الركون الى ما ادلى به المؤلف نفسه . ثم انه كان اميل من كار الى الاعتراف بدور العوامل النفسية الدينامية بالتأثير في سير المرض .

واذا كانت اول نوبة صرعية اصابت دوستويفسكي قد وقعت سنة ١٨٤٦ فهي تتفق زمنيا تمام الاتفاق مع اول نجاح ادبي احرزه بكتابه « الفقراء » . فهل يمكن اعتبار هذه النوبة شكلا من الكفارة عن النجاح المدهش الذي اصابه اثر كان هو نفسه نوعا من التفكير عن عذابات شعبه؟ ان ق. غ بلنسكي (١٨١١ - ١٨٤٨) - المنشىء لمدرسة جديدة في النقد الادبي الروسي ، استوحت الرومانسية الالمانية والمثالية الاجتماعية - هو الذي اكتشف موهبة دوستويفسكي الشاب وجذب اليها انتباه الجمهور في مقالة ظهرت في مجلة « ملاحظات الوطن » . وهو الذي (صنع) من دوستويفسكي كاتبا في الواقع . وحين توفي بلنسكي في ٢٦ أيار ١٨٤٨ لاحظ يانوفسكي نوبة دوستويفسكي الثانية . جاءه دوستويفسكي باخبار وفاة بلنسكي وكان (على حسب قول يارمولنسكي) في حالة من التأثر بحيث لم يجسر يانوفسكي ان يسمح له بالابتعاد عن ناظريه . مر اليوم بغير حوادث تذكر ، لكن في الساعة الثالثة من فجر اليوم التالي سمع يانوفسكي صوت شخير منبعث من غرفة دوستويفسكي . فاندفع الى الغرفة فوجده مستلقيا على ظهره ، في حالة تشنج ، عيناه مفتوحتان باتساع ، ولسانه مندلع ، والزبد ملء فمه .

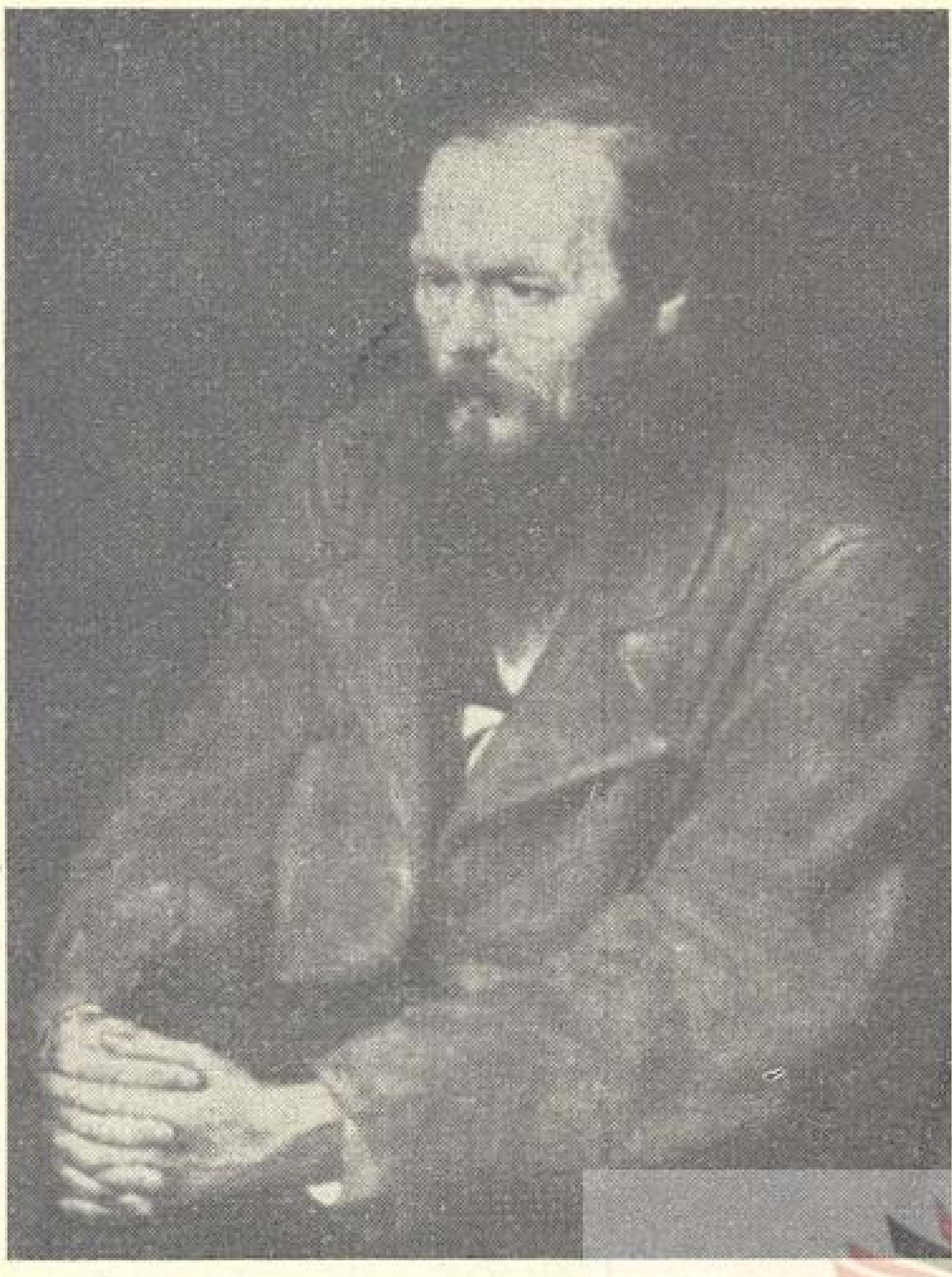
واذا امكن ان نعد الضربة الاولى نوعا من العقاب الذاتي، فان الضربة الثانية وثيقة الصلة بفقدان صديق شفيق كالاب . فهل يعني ذلك ، في خيال دوستويفسكي المريض، شيئا غير ان بلنسكي قدم حياته عربونا لعطفه على الكاتب الشاب ؟ هل شعر دوستويفسكي بالمسئولية عن وفاة رجل، كان قد عامله معاملة ولده ، مع انه تشاجر معه وامتنع من

التكلم اليه في الخمسة عشر شهرا الاخيرة ، هذا الرجل الذي كان أسن منه بعشرة اعوام فقط ؟

وفي هذا الخصوص ، جدير بنا أن نتذكر مقتل والد دوستويفسكي الذي حدث وهو في الثامنة عشرة من عمره حسب ، في أحوال ، تتشابه في بعض الوجود مع الظروف التي احاطت بمقتل كارامازوف على يد ابنه النغل سميرد ياكوف . والواقع ، كتبت ابنة دوستويفسكي في سيرة والدها ، على حسب اعتقاد الاسرة المعترف به ، «ان دوستويفسكي أصيب باول نوبة من الصرع عند سماعه بوفاة ابيه . » وهذا « التقليد » حمل فرويد نفسه على ان يعزو المظاهر الجثمانية الملازمة للمرض الى هزة عاطفية تسببت عقدة اوديبس في ابتعاثها . كتب فرويد بهذا الشأن : « اكبر الظن انها (اي النوبات) يمكن تأريخها الى طفولة دوستويفسكي ، وكانت عوارض المرض هينة الاثر في اول الامر ، لكنها اتخذت شكلا صرعيا ، بعد التجربة المرعبة ، تجربة مقتل والده وهو لم يزل في الثامنة عشرة من عمره» وهذه النظرية يمكن ان تشرح ايضا مركب الشعور بالاثم والتقريع الذاتي اللذين يلازمان مثل الوالدين ، كما هي الحالة في شخصية كيريلوف المصاب بالصرع ، وما انتهى اليه من الحاد وكفر في « الممسوسون » .

وفي سنة ١٨٤٩ وقع دوستويفسكي في شباك سلطة علوية لا شخصية ، وقد يسميها المحلل النفسي صورة الدولة الاب . كان حينئذ في الثامنة والعشرين وقد تم اعتقاله لما قام به من دور في المؤامرة التي كانت تستهدف بتراشيفسكي ، فاوقف في قلعة بطرس وبولص . ومن هناك كتب الى اخيه ميخائيل قائلا : « اليوم ، في الثاني والعشرين من كانون الاول ، ساقونا جميعا الى ساحة سيميونوفسكي . وهناك قرأوا علينا حكم الموت الصادر علينا جميعا ، وسمحوا لنا بتقبيل الصليب ، وكسروا السيوف على رؤوسنا والبسونا ملابس التنفيذ (اكفان بيض) ثم وقف ثلاثة (منا) على خشبة الموت استعدادا للتنفيذ . كنت السادس ، وكانوا يستدعوننا ثلاثة ثلاثة ، ولذا اصبح مكاني في الصف الثاني . لم يبق لدي الا دقائق قلائل من الحياة . لقد فكرت فيك ، اخي ، وفي اعزائك جميعا ، في هذه اللحظة الاخيرة ، فيكم ، انتم ، انتم ، وحدكم ، كنتم في خاطري ، عندئذ فقط ادركت كم احبك يا اخي العزيز ؟ وتمكنت ايضا من تقبيل بليشجييف (و) دوروف اللذين كانا بجانبي مودعا . ثم صدر امر بالتراجع واعادوا الذين كانوا واقفين على خشبة الموت الى اماكنهم واعلنوا ان صاحب الجلالة الامبراطورية قد ابقى على حياتنا . . » وهذا « الابقاء » كان معناه النفي الى سيبيريا الى (بيت الموتى) وقضاء اربع سنوات من الاشغال الشاقة هناك – وكما يعترف (كار) نفسه ، فان النوبات الصرعية قد اشتدت في هذه الفترة .

ان سخافة هذه اللعبة التي قام بها القيصر ، وهو صاحب



صورة فيدور م. دوستويفسكي مؤرخة ١٨٧٢ للفنان و.غ بيروف

السلطة الزمنية العليا ، تتبدى في تحويله لرعاياه الى اشياء ، وهي تقدم لنا تاريخيا مثلا من ابرز الامثلة على الصراع بين الاجيال ودفعه الى أشد ما يكون العنف دراميا. فالدولة ، الاب ، يضع يده على الابن الشارد ويلعب به لعبة القط بالفار . والى المدى الذي ترتبط به المدنية الغربية من حيث تعريتها لصور الابوة اللاشخصية المتجسدة في الله والدولة ، والى المدى الذي وصل اليه صرع دوستويفسكي الذي ربما كان حصيلة مركب الاثم لانه هاجم والده ، وصديقه بلنسكي الذي كان بمثابة والده ، وصورة القيصر الاب ، ممثل الدولة ، يصح الاعتماد على فتوى موشغ القائلة : ان الازمة التي تقرض جذور المجتمع الحديث تركزت في صرعه .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان حكم الموت الذي لم ينفذ فيه في ساحة سيميونوفسكي يسر هجوم صرعه ، او بالحري اسهم في الاسراع بتطوره الى المرحلة الحرجة ، ومع ذلك فالظاهر ان تلك اللحظة حين كانت حياته معلقة بخيط واه ، شهدت لاول مرة نجاح دوستويفسكي في الانفلات من ذاته المريضة التأملية ، وعرض محبته الاخوية عرضا اصيلا . اما الوسيلة التي اتبعها في توديع بليشجييف ودوروف زميليه المتآمرين ، واطلاق مشاعره تجاه اخيه واعزائه الصغار فتظهر بوضوح – حتى بغض النظر عن شباك الاشجان الرومانسية ، ان الجزء الاكبر من كيان دوستويفسكي يتمثل في قدرته على المحبة وتمكنه من

التسامي بها الى ذرى بهية وآماد كونية . وهنا يظهر دوستويفسكي بصفته اول كاتب حديث في روسيا وربما في أوروبا ـ حديث لان شخصيته وكتاباته وحتى المرض الذي كابد منه ما كابد ، كل هذه الامور لها تفسيرات جد مختلفة . فصورة قتل الوالدين التي يعرضها ويشهر بها ، في حالة سميردياكوف ، الشخص المصاب بالصرع في « الاخوة كارامازوف » هي صورة تبعث على الاقتناع التام باصالتها . وهي تتمثل كذلك في شخصية الامير ميشكين، المصاب بالصرع هو ايضا ، في « الابله » الذي يحاول الانطلاق من الوجود الذاتي المحكوم عليه بالفناء الى مملكة المحبة . هذان المثلان المتطرفان يظهران مدى موهبة دوستويفسكي الواسعة وفي الوقت نفسه اشتداد وطأة مرضه .

اما نيتشه الذي لم يلتق بمؤلفات دوستويفسكي الا متأخرا نسبيا في حياته (١٨٨٧) فقد قال مرة انه العالم النفسي الوحيد الذي استطاع ان يتعلم منه شيئا ما . « فمكانه بين احسن فلتات الحظ السعيد في حياتي . » ومع ان نيتشه وجد دوستويفسكي « مناقضا لغرائزه الاصيلة » فقد ثمنه « باعتباره اثمن مادة سيكولوجية (تعرف عليها) » .

دوستويفسكي الذي كان مريضا نفسيا وعالما نفسيا في الوقت ذاته ، عد لامد طويل انسانا تفهم النفس الانسانية تفهما عميقا ، والفضل في ذلك يعود الى طبيعته ومرضه ، والى تقلبات حياته في انتصاراتها وانحداراتها . لكن هذه الفطنة الحادة كل هذه الحدة ، كانت هي ايضا تكاد تعد مرضا . ومع ذلك،وفي لحظة حرجة ، يحمل دوستويفسكي فيتيوكوفيتش ، محامي ميتياكارامازوف على القول : «على الرغم من عمق علم النفس فهو سكين ذات حدين » . اثارت هذه الملاحظة قهقهة من الضحك بين الجمهور ، وهذا يعني ان المستمعين الى فيتيوكوفيتش قد وقعوا في حيرة وارتباك من جراء هذه العبارة غير المتوقعة منه ، وهو المقصد نفسه الذي سعى اليه دوستويفسكي بشأن قرائه.

تمثل أسرة كارامازوف ، بدون شك ، من وجهة النظر السيكولوجية ، انحطاط المجتمع الحديث ، هذا الانحطاط الذي لم يتخلص منه الشاب اللامع ، السلبي المنازع ، كل التخلص . واذا نظرنا الى القصة ، من وجهة النظر هذه ، لرأينا انها توكيد قوي لنوع من الواقعية جربها أميل زولا باسلوب يقتدى به قبل ذلك الوقت بعشر سنين في كتابه Rougon-Macquarts . واذا ما قارنا بين الفوضى النفسية التي تسود اسرة كارامازوف وبين تلك التي تسود أسرة « بودنبروكس » لتوماس مان ، التي ظهرت بعد ثلاث عشرة سنة ، لتبين للقارىء الحديث ان القصة الاخيرة ليست الا عملا ساذجا خشن المآخذ . ومهما يكن من امر ، فان علم النفس يتغلب على الحذلقة النفسية ، في كل من هاتين القصتين اللتين تتناولان حياتي اسرتين معينتين .

وبالضبط حين يعالج دوستويفسكي شخصية سميردياكوف ، المصاب بالصرع، نراه ينبذ عالم الواقع نبذا كليا.

وصف سميرد ياكوف بانه (ابله الاخلاق) و (فاقد الجنس) ـ (مكروه كالزواحف) ويؤكد احد النقاد على « مظهره المريض الذي يشبه الخصي » حتى توماس مان الذي لم يجفل من أعماق الانحطاط الانساني يصف هذه الشخصية بانها شخصية « مخيفة » ان سميردياكوف مخيف ولكنه قبل كل شيء هو كذلك لانه يعري خواء النفس الحديثة في اكثر من وجهة نظر نفسية مجردة . فـ «وجهه العليل الضعيف ذو العروق المتشابكة على جبهته » يفضح سمات مخلوق لم يعد قادرا على المحبة . وهذا يفسر عطشه للحب الذي لا ينتهي والذي لا جدوى منه وطمعه في المال الذي يشبه الاخطبوط في طبيعته ـ وهو تعويض لما لا يمكن دركه . وهو يبين ايضا لماذا هو مستعد لتقبيل اي شخص يرأه متمكنا من ان يحفظه من الخوف ، ويقيه من وجوده حتى اذا كان في ذلك خنق من آمنه من خوف او تحطيم نفسه . اما تكوينه الروحي فهو تكوين بدائي متخلف،خاوي الوفاض من الروحانية ـ اي انه انعكاس ذاتي لحيوية ينبغي الا تحيا لكنها عازمة على الا تموت . وهكذا يجد نفسه مغلوبا على امره تظلله سحابة من البخار تظل معلقة على بيت آل كارامازوف كأنها قدر لا يرحم ، فيقترف جريمة القتل التي يفرض تنفيذها في الاسرة كأنها عاقبة قاسية من عواقب الخطيئة الاصلية . فهو ـ في الواقع ـ مخلوق مسير لا قياد له ـ رعية بلا راع . والواقع ان دوستويفسكي ، من خلال شخصية هذا (المصروع) قد تتبع الآثار الميتافيزيقية لمرضه نفسه في قصته الاخيرة هذه . وبكلمات أخر يصح اعتبار صرع سميردياكوف صرع السقوط .. (سقوط الخطيئة) . وهذا جلي كل الجلاء حين نتذكر ان هجوم (النوبة) كان مفتعلا مقصودا ليكون شاهدا على ابتعاده عن مكان الجريمة عند حدوثها . يعد المرض (هنا) كذبا وذنبا اجراميا (لعدم) ، وبعد ، هذا ليس علم النفس اذن بل هو الميتافيزيقا . ويكاد المرء يقول بل هو (اسطورة) القاتل .

ان النتانة التي يحتفظ بها سميردياكوف في اسمه نفسه (نيتن : Smerdet) لها صلة « برائحة التفسخ » المنبعثة من تابوت الاب زوسيما التي جاءت على خلاف ما توقعه المؤمنون وتلميذه الخاص اليوشا الشاب ، الذي يقول : « هذه فضيحة لا يمكن تذكر نظير لها في تأريخديرنا باسره ... كما ظهر ذلك مباشرة بعد هذا الاكتشاف بين الرهبان انفسهم » . حتى زوسيما الذي كان يعد قديسا يأخذ الانحطاط والتفسخ بتلابيبه ، وقد بدا كل منهما في شكل انساني في شخصية سميردياكوف . هذا المخلوق الذي انجبه والده كي يقتله بعدئذ بالاشتراك مع صعلوك شبه مجنون في قضية مخزية فظيعة باردة . وبذا اصبح سميردياكوف رمزا لاجهاض الاثم الانساني ، رمزا منزلقا

حاذقا لا يكاد يدرك ، لكنه موجود في كل صفحة من هذا العمل الادبي الضخم . . .

وقبل ثماني سنين تقريبا من نشر «الاخوةكارامازوف» قدم (مصروع) اخر في « الممسوسن » هوكيريلوف نظريته الخاصة عن هذا الاثم في مقولة تجريدية فيها شيء من التنطع النظري ، حيث قال « هذه ثلاث سنين وانا أبحث عن فضل الهي علي ، فوجدت اعظم الفضل في قوة الارادة. وهذا ما استطيع انجازه لاثبت ـ باعلى درجة ـ استقلالي وحريتي المرعبة الجديدة . انها جد مرعبة . فانا اقتل نفسي لاحقق استقلالي وحريتي المفزعة الجديدة» فالمرض والصرع وقتل الوالدين واللادرية والفردية (المغالية) ، والانتحار الذي هو تحرير الذات السخيف وهو باكورة ما سماه (كامو) بالتمرد الانساني . في هذه الامور جميعا نجد حفريات متغلغلة بعمق في طبقات الوجود الانساني ، تلك الطبقات التي لم تسبر اعماقها بصورة جيدة حتى الآن ، لان شفرة علم النفس المتنطعة (ذات الحدين) لم تصلها بعد . فما قاله مارتن بوبر ذات مرة عن ستافروجين هو صحيح كذلك بالقياس الى كيريلوف : فهو أيضا «عدمي عمليا لكنه وجودي سلفيا » . أن كيريلوف « الانسان المتفوق » وستافروجين المجرم لم يعودا يمثلان قيما مزجاة من قيم مدنية مريضة . انهما صورتان، ولو بشكل تخطيط عام ، يمثلان الوجود الانساني في تناقضه الظاهري .

ومن اجل ان نجد صنو سميرداياكوف علينا ان نعود القهقرى اربع سنين الى شخص الامير ميشكين « الاحمق في المسيح » و (بطل) (الابله) ١٨٦٨ . (ومن هنا) يبدو صرع سميرداياكوف شيطانيا عديم المعنى تماما ، في حين ان صرع كيريلوف ما هو الا شكل من التحدي والوقاحة . . . وعلى الضد من ذلك نجد في ميشكين النشوة الروحية المتناقضة التي تبدو كأنها جزء لا يتجزأ من المرض . « انه يتذكر ، في غضون نوبات صرعه ، او قبلها مباشرة ما كان يحس به بالتجربة في لحظة او لحظتين ، حين كان قلبه باسره وذهنه وجسمه في حالة انتفاضة ويقظة ووفرة من الحيوية والنور ، وهكذا كان يصبح مفعما بالفرح والامل ، اما همومه فكانت تبدو وقد تبددت الى الابد . . . » لحظة من « الانسجام والجمال في ارفع مدارجهما ـ لحظة من الاحساس العميق الطافح بالسرور والانشراح ، بالنشوة الروحية والحياة الكاملة . . . »

ليس من الصعب ان نرى صلة بين لحظة التوتر الشديد هذه والتركيز الذاتي وبين تلك اللحظة الحاسمة في الساحة المقابلة لقلعة بطرس وبولص حين تمكنت المحبة في النهاية من السيطرة على قلب دوستويفسكي . فكلا اللحظتين رمز لانبثاق الذات وتغلغلها في عوالم ادراك شامل المحبة الاخوية .

وقد وضع توماس مان تعاليم دوستويفسكي التيتتناول النفس الانسانية في مرتبة اعلى من انجازات القصة الاوروبية (الغربية) فقال : « ليس على المرء الا ان يقارن بينه وبين بروست الذي تطفح مؤلفاته بكل ما هو نفسي جديد براق مدهش ، ليدرك الاختلاف في اللهجة والنغمة الاخلاقية . فالاكتشافات النفسية والبدع والوقاحات التي طلع بها الفرنسي ما هي الا متع تافهة بالقياس الى صنوف ما أوحي به الى دوستويفسكي ، الرجل الذي كان يقطن في الجحيم » . كان توماس مان عالما نفسيا عظيما ولهذا السبب بالضبط اخطأ لان عظمته هي عظمة عالم نفسي قبل كل شيء . فهو لم يستطع ان يرى الصفاء الذهني ولا الحماسية ذات التجلي اللذين ادركهما بروست في ازمات قصصه ، ولنضرب لذلك مثلا مشهد (مادلين) في «طريق سوان » او فصل البندقية في « اختفت البرتين » او في موت بيركوت في « الزمن المعاد » وهذه المواقف كلها لها صلة صادقة حية بالتقدم الخلاق الذي جربه كل من ميشكين ودوستويفسكي اثناء ما كانا يتعرضان لهجمات المرض . ان المؤلفين قد توصلا الى رؤيا جلية جديدة للواقع ، كل من خلال اوج مرضه الخاص . يمكن اعتبار جحيم بروست اكثر تشعبا وتفرعا من جحيم دوستويفسكي، ثم انه كان باردا كالثلج ، على حين ان جحيم دوستويفسكي كانت تكتنفه السنة النيران. ومع ذلك فحين نتأمل الجحيم الذي يمثله المرض باعتباره حافزا خلاقا ، يصبح من الحذلقة ان نبحث عميقا فيظلال المعنى الاخلاقي او نتجنب ملاحظات على حسب حالة الضمير الذي انجب هذهالفقرات التي نحن في صدد التساؤل عنها .

ومما يقال ان بروست كان اقرب الى التعقل من دوستويفسكي . عندما نرجع مرة اخرى الى ذكريات ميشكين، فهو يقول : « . . . لم تكن هذه اللحظات غير هواجس ثانية واحدة (انها لم تكن اكثر من ثانية قط) وفيها كانت النوبة تهاجمه . طبيعي الا يكون من المستطاع التعبير عن هذه الثانية . وعند انحسار الهجوم ، كان الامير يشرع فيالتأمل في العوارض التي اصابته ، ومما اعتاده من قول : « هذه اللحظات القصار التي تحملني على الشعور بنفسيوبالتالي بوفرة من الحياة اكثر من اي وقت آخر ، لحظات لا تنفصم عن المرض وعن تمزق فجائي للاحوال الطبيعية . ولهذا فهي ليست طرازاً عاليا من الحياة بل طرازا واطئا منها . ومهما يكن من امر فهذا الاستنتاج ينتهي الى تناقض يقودنا الى ملاحظة اخرى : ـ واذا كان الامر مرضا فما البأس في ذلك . .! » لقد اعترف الامير بغير تحفظ لنفسه ان شعور الغبطة العارمة في تلك اللحظة المكتظة جعلها تعدل حياة باسرها . (كنت اشعر كأنني فهمت هذه الكلمات المدهشة ـ « لن يكون ثمة زمن بعد الآن . ») . . وهذا الشعور بالانعزال عن الزمن الذي جربه دوستويفسكي اثناء نوباته لا يختلف كثيرا عن شعور بروست ، اذ اصبح بالقياس اليهما قاعدة اصولية في فنهما . ان لحظة انعدام الزمن ، او الزمن المذاب او المحطم او حين تغزو الهواجس

الذاكرة فيغني كلاهما ، هذه كانت لحظة الابداع والخلق .

حاول ارنولد هاوز ، العالم الاجتماعي ذات مرة ان يربط بين اعمال دوستويفسكي وبين القصة البيكارية (التي تتناول حياة المحتالين والنصابين والشذاذ) لكن محاولته كانت اعتباطية تماما ، ومع ذلك فهو على حق حين يشير باسلوب مقنع الى ان الزمن عند دوستويفسكي — في استمراريته — ينجب سلسلة من الحوادث التعبيرية الحقيقية الواقعية منتظمة في شكل يشبه الفسيفساء ، وبذا فهو ينبىء بـ « المبدأ الاصولي للقصة التعبيرية الحديثة . » وفي هذا الصدد يبدو دوستويفسكي متقدما على جويس وبروست وروبرت موسيل وهيرمان بروخ وهايميتو فون دودرر ، الامر الذي كان يمكن للكاتب ان يضيفه الى قوله ذاك . يقول هاوز مستطردا « فالسرد القصصي يتحول الى بيان وتذكير ومناقشة فلسفية . وتصبح القصة مجموعة من المشاهد الحوارية والمناجاة ، بالاضافة الى التعليقات والطفرات الكلامية . » وفي تناولنا اللازمني للكاتب الملحمي هذا علينا ان ننظر الى واقع ثان بعيدا عن المشهد اليومي الاعتيادي . وبهذا الشأن يستشهد هاوز بدوستويفسكي حيث يقول : « انا احب الواقعية فوق كل اعتبار ، هذه الواقعية التي تتاخم الخيال . . وهل من شيء امعن في الخيال وابعد عما هو متوقع لدي من الواقع نفسه ؟ حقا ، هل من شيء أشد محالا من الواقع؟»

ان ملاحظة كافكا لا تبعد عن هذا القصد الا خطوة واحدة حيث يقول : « الواقع الاصيل هو دائما غير واقعي » هذا التناقض الظاهري الذي لا يدرك الا في اللحظة الخلاقة هو الذي دفع كافكا ليدافع بعناد عن دوستويفسكي ضد اعتراض ماكس برود التافه بعض الشيء الى ان الكاتب الروسي قد قدم الينا العديد من الشخصيات المريضة . كتب كافكا في مذكراته في العشرين من كانون الاول ، ١٩١٤ قائلا : « هذا خطأ فظيع ، فهذه ليست شخصيات مريضة . اما تشخيص مرضهم فليس الا وسيلة جد مثمرة وجد دقيقة للابانة عن هذه الشخصيات . فيكفي ، مثلا أن نقول بالحاح هذا شخص ساذج ابله ، لكن مثل هذا الشخص لو كان له سند دوستويفسكي لانجز اعظم المنجزات . »

من المحتمل كثيرا هنا ، ان كافكا كان يفكر في الامير ميشكين الذي كانت حالاته (المرضية) الايحائية تبدو ضمانة له من اجل تلك العبقرية الخلاقة التي سعى اليها جاهدا طوال حياته المسوسة . ثم يستطرد كافكا قائلا : « ان تشخيصات دوستويفسكي ، في هذا الصدد ، فيها اهمية تشبه اهمية استعمال الكلمات المقذعة بين الاصدقاء. فاذا قال احد الاصدقاء للآخر (انت احمق) فهو لا يعني حقا ان ذلك الشخص احمق ، وقد اهين بسبب من هذه الصداقة ، بل على الضد ، فالامر لا يعدو ان يكون مزاجا بسيطا بريئا — وحتى في تلك الحال — فوراء تلك الكلمات مزيج لا ينضب من النوايا . »

ومن هنا ، ليس ميشكين شخصا ابله (حقا) ولا كيريلوف عدميا (حقا) ولا سميردياكوف غولا (حقا) . وحتى صرعهم ، بهذا المعنى ليس صرعا (حقيقيا) بل بالحري رمزيا يلازمه « مزيج لا ينضب من النوايا » . كان دوستويفسكي شهيد مرضه وعمله . ومهما يكن من امر فانه ، في النهاية ، لم يعن لا بمرضه ولا بميتافيزيقيته — اعني ذلك الشكل من (المسيحية الروسية) التي بشر بها ببلاغة وارتباك كما فعل بالاشتراكية ثم بـ « الانسان المتفوق » الذي يمثل موقفه راسكولينكوف . انه لم يتأمل في الوجود بل سعى من اجله مجاهدا . فقتلته وحمقاه وعصاته وقديسوه ومقامروه ومرضاه في ظمأ لافح للوجود يتقربون اليه في واقع جهود دوستويفسكي واعماله الادبية ، من طريق المقامرة العنيفة بحياتهم . وهذا الوجود نفسه هو المسئول عن قوة الجاذبية التي تجذب شخوصه المصروعة الى اسفل حتى انها ربما تذكرنا ولو بصورة سطحية بافلاس المدنية الحديثة . وعلى ضوء مرضهم ذي الاندفاعين المتكافئين ، يمكن ارجاع ما الم بهم الى «عصيان الانسان الاول والثمرة . . . »

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة

عناد

اعـرضت عـني دلالا وهـوى
وطـوت ما بيننـا بالامس كـانـا
وانـا أعـرضت عنهـا عـزة
واباء ... والهـوى ان عز هانا
شيمـة الغيد قديمـا ، وبهـا
منذ حـواء حبـا الله الحسانا
وتنـاءينا ... فسارت وحـدها
وانـا آليت الا أتـدانى ...
ساعـة مـرت حسبناها طـوت
في ثوانيها الطويـلات الزمانا
وتـراءت لهـلال غـرة
في جبين الافـق قد لاحت عيانا
واثنيـنـا فرمقناهـا معـا
وعـلى الخدين سالت دمعتـانـا
فتنـاسينـا شجونـا بيننـا
وبسمنـا لـلامـاني كـلانا
وضحكنـا فـي صفـاء ورضى
واعتنقنـا ... وتـلاقت شفتـانا

لندن — سعيد العيسى
من « العروة الوثقى »

اين حبيبتي

بقلم وديع العريضي

قصة

... الثلج يتساقط رقعاً ناعمة . شجيرات السرو المحيطة ببيتنا لبست ثوبا ابيض . الحشائش الندية في الحديقة بلعها بساط الثلج . كل ذلك بدا من زجاج نافذتي . والثلج يتناثر في الاجواء ..

غدا ليلة الميلاد .. امي جلست امام الموقد بخشوع . غرقت بالصلاة .. اتاني من البعيد صوت ناي حنون .. امي تعيد علي قصة المسيح المخلص . والثلج يتناثر رذاذا ..

شردت بافكاري خلف ستار اسدل على حياتي .. انتفض كلما تخيلت انني اسمع لحنا من الماضي ، تترقرق الدموع في عيني ، وابكي !.. ابكي بصمت قاتل ..

انتصف الليل . انهكني النعاس . والنيران تتثائب في المدفأة. استيقظت من شرود كنت معه افتش في حدائق افكاري عن شيء فقدته . فقدته فاضناني . وتركني اتخبط في بحور من الفراغ. من النقص . من الضعف. من الخوف والجبن .

افتش عن حبيبتي التي اضعتها منذ امد بعيد .

لست ادري مذ متى تركتني امي في شرودي الضال ، مذ متى انهت تراتيمها الدينية وذهبت تغوص في الفراش . كلما اعرف انني رأيتها تغط في نوم عميق .

استلقيت في سريري منهكا . بعد ان فتحت الباب ، وتفقدت الثلج الذي لا يزال يتساقط رقعا ، وقد ارتفع بضع سنتمترات عن عتبة الباب .. كلما يشغلني هو ان اجد حبيبتي . غدا ليلة الميلاد . يجب ن احتفل معها بهذه الذكرى الخالدة . ترى ، اين هي الآن ، علني اجدها يوما ..

الليلة عشية الميلاد . هربت من الصمت والوحدة .. هربت من الريف الناعس . هربت من الصقيع . من كهولة الطبيعة . من الاجواء المحتضرة في قريتي .. الى ضجيج المدينة الصاخب .. حيث تدب الحياة دائما وابدا .. او لعلني توهمت ذلك ، خاصة في مثل هذه الليلة بالذات . لاختلق عذرا باطنيا ، اخدع به ذاتي .. اخفي عنها الصورة الحقيقية لرغبتي .. وهي انني اعتزم التفتيش عن حبيبتي الضالة . الليلة .. وفي المدينة .. علني اجدها في هذه الامسية الصاخبة ، امسية الميلاد ..

خيوط المطر تنهمر بغزارة فائقة في المدينة . الرياح تصرخ مولولة ليخفت صوتها عندما تتكسر على رؤوس الابنية الشاهقة . الانوار تتلألأ في كل صوب . الشوارع تزدحم بالسيارات . القطن المندوف غطى زجاج واجهات المتاجر ، تطل من خلاله شجرة الميلاد بانوارها الخافتة الملونة ، والقطن المنثور عليها كانه بساط ثلج ، والالعاب والهدايا المختلفة المعروضة للبيع . الناس يخترقون الامطار باحلى حللهم . يحتمون لحظات تحت رفاريف الدكاكين . او يدخلون المتاجر لابتياع الهدايا . صفحات مستنقعات المياه في الشوارع تتكسر تحت عجلات السيارات . يصدر عنها صوت مبحوح كأنه فحيح الافاعي ..

امام واجهة متجر مشهور وقفت مشدوها احدق في اللاشيء .. او لعلني احدق في اصناف الهدايا المعروضة ، أو في ازدحام السيدات والسادة واقبالهم الشديد على ابتياع اثمن الاصناف . او في التاجر الباش الذي طفحت منه الغبطة والبهجة ، لعله في كل لحظة كان يمني نفسه بالارباح الوفيرة التي سيضيفها الى ثروته هذه الليلة . وبدون ادراك وجدتني اقفز الى الداخل ، وانخرط بين الجماهير التي تنتقي اصنافا لتبتاعها ..

تساءلت لماذا ؟! لماذا اصبحت هنا .. في الداخل ؟.. لا لشيء ؟!..

ربما اعتقدت انني هنا يمكن ان اجد حبيبتي .. وجالت نظراتي تتفحص وجوه الجماهير ، او جمال المتجر ، او الالعاب الكثيرة المعروضة ، او لعبة معينة ربما اوحت لي بذكرى ما .. او شيئا من اصناف الحلوى .. او قطعة حلوى واحدة .. وعرفت شيئا واحدا ، هو انني لم اعرف عن ماذا كانت تبحث نظراتي .. لعلها كانت تتفحص اللاشيء .. واخيرا بدات ارى اشياء ، واشياء كثيرة ..

رأيت خطيبا يتشاور مع البائع عن احسن هدية يقدمها لخطيبته .. خطيبة تسبق خطيبها لانتقاء هدية تمنحها له . زوج يطوق خصر زوجته ، يتشاوران عن نوع الهدية التي يبتاعانها للاصدقاء ، زوجة تنتقي الالعاب التي تقدمها لاطفالها . حبيب انطبعت في عينيه صورة المودة ، يفتش عن اصغر واثمن هدية ليضمها الى قلبه .. صبية ارتعشت بالبراءة عندما ضمت بيديها الهدية التي اختارتها لحبيبها . وصرخ في داخلي صوت خفي : انا .. لماذا لا ابتاع هدية ؟. اية هدية حلوة ، اقدمها لحبيبتي عربون ذكرى هذه الليلة ؟.

وتهدجت نغمات الصوت ، كأنه استدرك شيئا .. وعاد يردد بنغمة حزينة : .. انا ؟.. انا ابتاع هدية؟. لمن ؟.. ليس لي حبيبة .. حبيبتي هربت مني . هجرتني منذ البعيد !. انا ليس لي حبيبة .. ليس لي اهل .. وليس لي اصدقاء !.. اذن . لمن ابتاع هدية ؟..

يبدو ان البائع استدرك شرودي ، واستطال وقفتي ، فايقظني من غفلة

افكاري صوته هامسا في اذني استاذ ، اظنك حائرا في الهدية التي تفضل انتقاءها لحبيبتك . هل تقبل نصيحتي بهذه ؟.. واشار باصبعه الى هدية صغيرة ثمينة،هي بالحقيقة صالحة التداول بين الاحباب .. اما بالنسبة لي كان وقع سؤاله علي كالصاعقة ..

احترت في امري ماذا علي ان اجيب .. كيف يمكنني الخروج من هذا المأزق ؟.. واثرت شراء اي شيء على ان اخرج من متجره فارغ اليدين .. فاجبته :

ـ لا .. شكرا .. ولكن اعطني تلك ..

واشرت بيدي الى قطعة حلوى مغلفة .. دهش البائع وسلمها الي بامتعاض .. بعد ان نقدته ثمنها (ربع الليرة) التي طلبها ..

سرت في الشارع مخترقا الزحام والانوار دون ان اتخذ هدفا او وجهة سير معينة . السماء توقفت عن المطر ، لكن الغيوم ما زالت ملبدة تحجب اضواء النجوم ، والجو قارس البرودة ينبيء بقساوة الطبيعة ..

امام مدخل احدى صالات عرض الازياء . وقفت محدقا به .. صبي لا يتجاوز العاشرة .. ترك قدميه العاريتين تغوصان في بقعة ماء خلفتها الامطار . وقطرات تركها المطر على شعره المشعث كانت تتسلل الى بشرته الصفراء .. عيناه تحدقان بذلك الصنم الصغير في الصالة . صنم صبي كأنه في سنه . اخذ يقارن بين قميصه الرث الممزق . وتلك الثمينة التي البست للصنم . يقارن بين كونه شبه عار ، وبين البذلة الجديدة التي وضعت على ذلك الصنم . واحس كأن الصنم يحدق به باحتقار وتحد ، لانه يرتدي بذلة جديدة .. بينما هو شبه عار .. ربما تخيلت انني سمعت مضغ ريق الصبي عندما فاض في فمه شوقا وحسدا . كان يحسد الصنم على بذلته الجديدة التي يرتديها !.. وفي لحظة ما .. رأيت بسمة قد ارتسمت في عينيه الواسعتين .. استنتجت منها ربما الصبي ادرك نفسه فعرف انه خير من ذلك الصنم، لانه هو انسان .. او ربما رضي عن كونه عاريا . اذ عرف ان غير الاصنام لا يرتدون بذلات جديدة ويتطلعون اليه باحتقار ..

فجأة .. كأنه صحى من افكاره وتأملاته . استدار نحو المارة مادا يده .. طالبا العطاء .. اعترض طريق رجل جسيم ظهرت عليه معالم الثراء .. سمعت كلمات الاستعطاف تنطلق من فمه كسيرة . وكأن الثري لم يسمع !.. تبعه حاجزا له الطريق ويده ما زالت ممدودة . والكلمات تخرج من شفتيه .. وكأن الثري عرف واجباته .. نهره بعنف .. صفعه بقسوة.هذا ما كان من عطائه!.

هرب الصبي يقطع الشارع خوفا وذعرا . لكنه كان على موعد مع القدر في ليلة الميلاد . اذ تلقفته سيارة مسرعة . مرت فوق جسده الطري. نهشت لحمه كوحش كاسر .. وبقي الثري سائرا كأنه لم يحدث شيء ، او كأنه تخلص ممن يطلب منه العطاء الى الابد ..

تابعت السير منذهلا . شاردا . لاعنا .. ورن في اذني صدى كأنه آتٍ من البعيد . وتكرر الصدى بعنف وشدة ليذكرني بذلك الغني :

« واما السائل فلا تنهر » ـ «واما بنعمة ربك فحدث » ومن ؟. من يمكنه ان يسمع ذلك الصوت . اهو ذلك الثري الذي تسبب في مقتل نفس بشرية دون ان يبالي بما حدث؟. وعاد صوت آخر يرن في اذني : «اما لستم تعلمون ان الظالمين لا يرثون ملكوت الله .. »

كنت في شرودي اجوب ضواحي « الزيتونة » عندما لمعت امام عيني احرف كهربائية جمعت كلمة «كباريه» وقبل ان ادخل بابها الخيزراني الضيق . مرت بخاطري فكرة واحدة .. « علني اجد حبيبتي هنا » ..

بدت الانوار خافتة . الموسيقى تنبعث بحرارة دافئة . دوائر الدخان المتصاعدة تكاثفت في فضاء (البار) . الزبائن تناثرت حول المناضد المستديرة . تلاعبت بمشاعرهم شياطين الخمرة. الحسناوات شبه عاريات.. كل واحدة تستعمل اسلوبها الخاص في سلب اموال الزبائن . اتفه المغريات يقدمنها للزبائن باسعار باهظة . القبلة .. البسمة ..اللمسة .. الكشف عن اماكن الجسد المثيرة .. الكلمات المهترأة .. القهقهات المائعة .. العواطف الممثلة .

لكل شيء ثمنه الخيالي في ذلك المكان.. كل شيء ينطق بلفظة واحدة: (كيف نجمع المادة) حتى الجدران الصامتة المزخرفة تخيلت انني اسمعها تتكلم (افرغ نقودك هنا ..) تأملت وجوه الزبائن الشاحبة . لم ار فيها سوى صورا مضطربة لا معنى للحياة فيها . وجوها تمثل قوما من السكارى الخاملين .. وخرجت من وسطهم مذعورا على دعوة كأنني سمعتها آتية من السماء : « اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجسا » ..

ترى .. اين حبيبتي !؟.. علني اجدها في اية بقعة .. اية زاوية ..

الساعة اوشكت على معانقة منتصف الليل . الحركة لا زالت مستمرة صاخبة . السماء بدات تمطر رذاذا. الانوار تآزرت فتآمرت على تفكيك جيوش الظلمة من المدينة . وانا ما زلت اجوب الشوارع دون قرار .. برقت في السماء اشعة كأنها وجوه الملائكة . قرعت الاجراس معلنة ذكرى مولد المحبة والانسانية . ورأيت الهلال والصليب يتعانقان في قبلة طويلة اعترافا بالمحبة السماوية . وجموع المصلين اسرعت تجوب الشوارع لتأم بيوت الله .. دخلت دار الكنيسة بين الجموع الزاحفة . « علني اجد حبيبتي هنا » ..

ومن فوق المذبح . اتاني صوت الكاهن خافتا خاشعا : « لانه ليس

انسان بلا خطيئة . ارسل الرب يسوع كفارة لخطايانا . ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم ايضا » ..

خرجت متلاشيا وقد فجرت تعابير الكاهن في كياني براكين من العواطف الدفينة .. ـ ترى .. اين حبيبتي؟.

انقضى الميلاد بين بسمات ودموع. ساد الجو خمول ملموس .. ساده سكون رهيب من النوع الذي يسبق العاصفة .. فلا عجب في ذلك .. هي مرحلة هدوء واستعداد لاستقبال عيد رأس السنة .. وتراءت حبيبتي لنظري كالنور المشع . واقنعت افكاري المضطربة انني سوف اجدها ليلة العيد ..

... المدينة في هرج ومرج . نفس الزحام والمشاهد التي رايتها ليلة الميلاد .. فقط زيادة ملموسة في الحركة . الخمرة تتناثر مع كل نور منبعث من نافذة .. الموسيقى والرقصات المثيرة تتجاوب مع العواصف .. الآلاف .. عشرات آلاف الليرات تبذر على الموائد .. بينما التحفت بعض اجساد عارية السماء والريح .. مرت امامي صور مختلفة لفقراء بؤساء .. وعادت تداعب مخيلتي صورة صبي الميلاد.. من يدري ؟.. ربما هؤلاء من جديد سيذهبون الليلة ضحية الاغنياء العابثين .. ازدحمت السيارات في الشوارع ، تجمع بين العاشقين .. تأملت هذه الليلة عن كثب .. انها مذبح واسع صاخب ممتلىء بانواع الفسق والمجون ..

كل حركة .. كل همسة .. كل صورة .. تتفجر معها ينابيع الاثام الدفينة ..

فلتت من ذاكرتي عبارة كانت تجوب مخيلتي وانا ادق الشارع بقدمي : « آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين الهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم » .

... هربت مني هذه العبارة . عندما رايت مذهولا سيارة يقودها شاب مراهق .. يبدو ان الخمرة تلاعبت بمشاعره .. كانت السيارة تترنح يمنة ويسرى وسط الشارع المزدحم . من داخلها انطلقت عبارات البهجة والمرح بلهجات مخمورة .. كانوا خمسة مراهقين ومراهقات .. ومن خلال غفلة نشوة السكر .. اصطدمت السيارة باخرى مسرعة .. تحطمت السيارتان . تفجرت الدماء. تناثرت الاجساد . قتل ثلاثة ، جرح خمسة . كانوا جميعهم على موعد مع المأساة في ليلة رأس السنة .. ومع ذلك ، لم يتوقف الهرج والمرج في المدينة .

ترى اين حبيبتي : ؟ علها في هذا المكان الصاخب الذي ادخله . تناثرت الموائد الخضراء في تلك الصالة الكبيرة .. توزعت حولها وجوه باشة .. ووجوه باهتة .. يبذرون الاموال دون حساب . وعلا الصياح والرقص والموسيقى الماجنة في ركن آخر .. تعانقت كؤوس الخمرة في ركن ثان بين ايدي العذارى والشباب .. بدات الخمرة تخدر عروق الاجساد المثيرة البريئة . وبدات تلك الاجساد تحن للعزلة ، للخلوة ، لاخفات اشعة النور .. وهبوب عواصف عواطفهم المكبوتة .

هنا .. هنا سأجد حبيبتي ، وانغمس معها في شتى الوان المجون .. واطفىء فيها لهيب عواطفي الجامحة .. لم يكن كما توقعت . اذ تطلعت الى الفضاء من خلال النافذة تخيلت كأنني رأيت شرارة نارية تشق السماء . انبعث معها صوت خافت عذب؟ :«انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » .

.. وليت هاربا اترك المكان على غير هدى .. تناسيت كل ميولي واشواقي له . راودت مخيلتي فكرة جديدة . عل حبيبتي كانت هناك .. حول تلك الموائد الخضراء. حذرني من التمادي في تخيلاتي صوت آخر : « ماذا ينفع الانسان لر ربح العالم كله وخسر نفسه ، او ماذا يعطي ذلك الانسان فداء عن نفسه ؟؟.. »

... بقيت اجوب الشوارع كالمجنون . حتى تراءى لي شبح يحتضر .. يلفظ زفراته الاخيرة وقبل ان يدفن في اغوار الازل .. عانق شبحا جديدا لجنين لم يبصر النور .. اودعه الاسرار .. وانطفأ ..

وفي غياهب العتمة . وجدت حبيبتي . وجدت نفسي .. وجدتها هاربة ، تجتاز خطوة جديدة من الحياة .. تبصم على جبينها رقما اضافيا .. مسكتها . عانقتها . وسرعان ما افلتت مني وولت شاردة .. شاردة ..

واطل الجديد على الوجود . وبدأ الانطلاق ..

الانطلاق اللامتناهي في اغوار المجهول ..

قرعت الاجراس ابتهاجا من كل صوب . اهتز لها كياني . ارتعشت اوصالي . كأنها مست بسلك كهربائي .. وسرت في عروقي لذة خفية .. عند ذلك . رأيت في النور .. رأيت حبيبتي .. نفسي .. تقدمت مني. عانقتني بشوق .. لكنها هذه المرة لم تهرب .. تشبثت بي باصرار وعزم .. واتفقنا على ان ندخل في الغد احد بيوت الله .. لاعلان الولاء ..

وديع العريضي — **بيصور لبنان**

مكتبة الاديب



رجال حول الرسول

تأليف خالد محمد خالد ـ ٤ اجزاء ـ (؟) صفحة ـ (؟) مطبعة

بين حين وآخر ، يطوف احد كتابنا بالمذاهب والافكار والثقافات من شرقية وغربية ، ثم لا يلبث ان يجد في التراث الاسلامي العربي ضالته ، وهويته، وزاد روحه ، ومداد قلمه ، وضياء نفسه .

وربما كان الكاتب له المام بذلك الفكر منذ قديم ، ولكنه لا ينكشف له في روعته وجماله . واشراقه الا بعد رحلة طويلة في الاداب والثقافات المختلفة ، كذلك صنع الدكتور هيكل من قبل وصنع الدكتور منصور فهمي وكثيرون . طافوا بالثقافات والمذاهب والعقائد ووقفوا عندها واحدة بعد اخرى يلتمسون فيها سعادة لامتهم وضياء لاوطانهم ثم خلفوها واحدة بعد اخرى وقد فقدوا الامل فيها ، حتى اذا ما عادوا الى فكرنا الاصيل وتراثنا الشرقي العربي الاسلامي وجدوا فيه ذلك الضوء الساطع ، والمورد النمير .

ومنذ كتب الاستاذ خالد محمد خالد كتابه « معا على الطريق : محمد والمسيح » احسست انه قد وجد طريقه الذي يستطيع من خلاله ان يقول كلمته ويجد دعاء الانسانية الذي ينشده ، ثم امتدت سلسلة كتبه .

« انه الانسان ، افكار في القمة ، نحن البشر ، انسانيات محمد : الوصايا العشر ، بين يدي عمر ، في البدء كان الكلمة ، كما تحدث القرآن ، وجاء ابو بكر ، مع الضمير الانساني في مسيره ومصيره ، كما تحدث الرسول » .

اثنا عشر كتابا قبل هذا الكتاب تطوف في مجال الفكر الاسلامي والعربي وتستظهر جواهره واضواءه وتعرضها في ثوب جديد ، حتى ليخيل للباحث المتطلع الى آفاق كاتبنا « خالد » انه وجد مجاله الحقيقي الذي يرضي روحه ويلائم فطرته .

وهكذا الكاتب الموهوب ، يبدأ من حيث يبدأ ثم يطوف بمجالات الفكر، حتى يصل الى مكانه الحقيقي الذي يحس انه انما خلق له . ويجد المنطقة التي لا بد ان يدعمها بفكره وآثاره ، ولطالما كان خالد حفيا بالتجديد والابداع والابتكار حتى حين يعرض للقديم .

ولطالما كانت دعوته ان ينصرف الكتاب عن « ادب الدروب المطروقة » الى ادب الابداع والابتكار ، القائم على الدراسة العميقة والاناة والخلق الفني . كذلك كان يحكي لي قصة تطور فكره وهو على الطريق الجديد .

هكذا كنت اراه في اوائل عام ١٩٥٧ وفي مجلة « اضواء » حاولت ان اصور نفسيته في هذه الفترة بالذات فقلت « لا ادري مصدر هذا الصمت الذي يخيم على ذلك القلم الثائر العميق الذي قام بدور ضخم في تحطيم الفساد قبيل فجر الثورة في مؤلفاته القوية الحية ، واذا كان هناك كتاب تظل امكانياتهم الروحية والفكرية مدخورة حتى تبرز مرة واحدة في عمل ضخم كبير يهز ويترك دويا ، فان « خالد محمد خالد » واحد من هؤلاء كذلك كان كتابه « من هنا نبدأ » عندما اثار عاصفة ضخمة في محيط السياسة والفكر والدين والحكم . ولقد كنا نتحدث في هذا المعنى بالامس فقال لي ان الكاتب في نظري هو ذلك الذي له انعكاس فكري على المجتمع ، الكاتب الذي له ظل ، كيفما كان هذا الظل .

وقلت في هذه الكلمة عام ١٩٥٧ : انني اراه اليوم يقرأ كثيرا ولا يكتب ، لقد اعلنت صحيفة يومية كبرى قبل صدورها عن اسمه كأحد كتابها ولكنه لم يفعل ، لقد رأيت بنفسي ناشرا كبيرا يفاوضه في مؤلف جديد ، ولكنه ليس عنده ما يقدمه الآن . ولست ادري الى اي مدى تصدق القصة التي رويت عنه من انه منذ اكثر من عام يمر بمرحلة جديدة في تفكيره ونفسيته ، حقا هل هناك هزة تضطرم في اعماقه ، تحاول ان تنقله مرحلة جديدة في تفكيره .. لقد كان خالد في مؤلفاته داعيا الى افكار جديدة مثيرة في محيط الدين والمرأة والمجتمع ، فهل هو اليوم يجتر هذه الافكار مرة اخرى ، او يعيد النظر فيها ، لقد ذهب خالد الى اقصى اليمين ثم ذهب الى اقصى اليسار ، ترى هل هو اليوم بسبيل ان يأخذ طابع (المدرسة الوسطى) .

انه يقرأ فلسفات الاديان هذه الايام : زرادشت وكنفشيوس وغيرهما ، فما هو الاتجاه ، انه هو نفسه لا يعرف ، اني اراه حالما : اراه يريد ان يضع يده على الشيء الجديد : انه منقبض عن القلم ، ترى ما هو موقفه من مؤلفاته واوراقه الاولى ، ترى هل سيكتب شيئا جديدا ، ومتى ؟ متى تنتهي هذه التهويمة ليعود الى دنيانا ، ترى هل هو في طريقه الى « بردة الصوفي » او في طريقه الى « اهاب الفيلسوف » .

انى اراه اقرب الى الاول .. لقد كنت سمعت قصة احلام رآها ، ارادت ان تدفعه الى التصوف العميق ، وسمعت انه كان يبغي ان يقصد المدينة المنورة ليقضي بها شهورا ، مجاورا لساكنها صلوات الله عليه ، فالى اي مدى من الحقيقة يصل هذا كله .

ان « خالد » الذي تميز بمثاليته وخلقه ووضوح فكرته ونبل شخصيته وروحه العميقة ووفائه .. لا بد ان يقول كلمة صريحة واضحة حول هذه العزلة الروحية ، وهذا البرج العاجي الذي يعتكف فيه .

انني اول مشتاق الى ان اسمع ما يريح نفسي .. ترى هل استطيع بهذا الاسلوب ان اغريه بالكتابة . لو نجحت لكان ذلك كسبا ضخما » .

هذا ما كتبته عام ١٩٥٧ في مجلة « اضواء » تحت عنوان « فترة مخاض » وكنت اظن يومها انني قد فهمت الحقيقة ومنذ ذلك اليوم بدأ ظهور هذه المؤلفات ذات الطابع الانساني الواسع . وقلت لنفسي : لقد اتجه خالد الى « الانسان » وثروته الثقافية والروحية كمرحلة جديدة بعد مؤلفاته الخمسة التي سبقت هذه المرحلة من فكره وحياته .

ولكن خالد اليوم لا يريد ان يقال ان حياته الفكرية مرت بمرحلتين . او انه تطور من صورة الى صورة . ومن اسلوب الى اسلوب ، وان كان هدفه الاساسي ما زال قائما ، وهو الانسان وتحرير فكره ، كل ما هنالك انه كان يفكر في حدود القضايا والمشاكل والاحداث المتصلة بواقع السياسة والمجتمع والاقتصاد ، ولكنه الآن يرقى في مجال البحث الى قضايا الانسان الكبرى : الحرية والانسانية والروحية والضمير .

ومعنى هذا انه انتقل من « القضايا » الى « القيم » وليس اخصب في مجال البحث عن « القيم » ميدان من تراثنا الفكري الاسلامي الانساني الواسع . ويكشف خالد عن منهجه في مقدمة كتابه « انه الانسان » فيقول : « في صحبة تفاؤل عظيم بمستقبل الانسان كتبت هذا الكتاب ، وفي صحبة هذا التفاؤل اعيش ـ دوما ـ واحيا .

وصاحبكم من الذين يربطهم بالانسان ولاء غير مجذوذ ، ولا محدود ، وكل ما في الناس من ضعف ، لا يصرفني عن رؤية الانسان الكامن في داخل ذواتهم ، وصفوفهم . والكادح الى الكمال كدحا فملاقيه . صحيح انني ـ احيانا ـ ابتئس بما يفعلون ، وبما افعل ، ويتراءى لي مشهد

الفيلسوف الاغريقي « ديوجينز » حين صاح من فوق هضبة عالية « ايها الناس » .. فلما سارعوا اليه هز رأسه آسفا ، وقال : لم اناديكم .. انا انادي الناس .

لكن الانسان لا يلبث ان يظهر ، متربعا على عرشه القويم فوق كل هذه الفوضى ، حاملا مشعله المضيء ، وسط كل هذا الظلام ، فتذهب من فورها تلك الحسرات الكاذبة ، وتتطاير غواشي الكآبة واليأس امام عظمته السامقة » .

ثم يقول : ان عمله هذا جهد متواضع لاكتشاف الانسان ، اكتشاف حقيقته ، واكتشاف مشيئته ، واكتشاف الفرص الواجب توفرها له كي يبلغ كماله الميسور ويدرك مجده القادم . ثم يقول : « ينبغي ان نثق بالانسان ونطمئن الى مصيره ، وينبغي ان يكون جهادنا دائما مرتبطا بجهاده ومتمما له .. وان نتحرى مشيئته ونعمل وفقها .. علينا ان ننقل الانسان الى حياتنا ، ونملأها برؤاه وباصراره ، وعلينا ان نعمل من اجل مستقبله ومصيره . لنثق تماما ، ان هذه الارض لن تشهد يوما ما جنازة الانسان ، فالانسان الذي قضى ملايين السنين في احضان التطور لكي يبلغ الرشد الذي يبدأ منه رحلته الجادة الصاعدة ، لن يقضي نحبه حين تدق ساعة رشده وتبدأ بشائر عصوره ، ولقد دقت الساعة واهلت البشائر . ولو لم يبق من البشر سوى الف او مائة فسيعمل الانسان داخل هذا الالف ، او هذه المائة .

واذا لم يبق من نوعه الا عشرة فسيعمل مع هذه العشرة ، واذا لم يبق الا واحد فسيبدأ بناء عالمه الجديد بهذا الواحد ، واذا فني هذا الواحد ايضا ، فسيكمن الانسان داخل (اميبا) يهرب بها من الفناء ، ويبعث من داخلها نفسه مرة اخرى ، وينشر وجوده وحياته ورسالته من جديد » .

هكذا يؤمن « خالد محمد خالد » بالانسان ، وهو بهذا يضع نفسه في صف كتاب الانسانية الذين يبحثون في وعي وذكاء قضاياه وهي جولة موفقة متصلة عندما تصل الى غايتها : ستكون من امجد اعمال الفكر العربي الاسلامي المعاصر .

وهذا كتابه « رجال حول الرسول » يصدر في اربعة اجزاء ، ويتناول « تجربة الحياة » لمجموعة من اعلام الصحابة والرجال الذين جاهدوا مع الرسول .. « فلقد تعودنا ان نكتب عن امثال ابي بكر وعمر وعثمان وعلي ونقصر الكتابة عليهم ونكتفي بان نرى من خلال حياتهم عظمة العصر الذي ينتمون اليه ، بل الذي ينتمي اليهم » ولكن اخانا خالد يحاول ان نتعرف « في غبطة وشوق الى ثلة مباركة من الرجال العظام الذين عاشوا مع النبي ونهضوا حوله ومثلوا فوق ارض الله اعظم ادوار التفوق والعظمة » .

وعنده : « ان بطولة اولئك الرجال في حمل انفسهم على الزهد والورع والتقوى والبذل ، وفي اخذها الى كل رفيع وجليل من قيم الحق وفضائله لشرف كبير للجنس البشري باسره ، وحتى بطولاتهم في الجهاد والقتال من اجل الدين ، لا تعدم مكانها العالي في عصرنا هذا الذي يستنكف الحرب ويمجد السلام ، ذلك انهم مارسوا القتال المشروع في عصر كانت القوة فيه هي الحماية الوحيدة والفريدة للحق ، كما مارسوا الجهاد حين مارسوه ، دفاعا لا عدوانا ومحررين لا متجبرين» .

وهكذا يصل خالد محمد خالد في كتابه « رجال حول الرسول » وفي هذا العقد من الدراسات الانسانية الممتازة الى غايته ، الى حق الكلمة عليه ، حيث تجد الانسانية حلولا لقضاياهـا العليا في قيم الفكر الاسلامي وميراثه .

القاهرة — انور الجندي

فوارة الظمأ

تأليف محمد الصباغ - ١٩٠ صفحة - منشورات الشركة القومية للنشر والتوزيع بتونس - المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية

من الامور المألوفة في المجال الادبي ان يصدر من وقت لآخر كتاب يضم مجموعة مقالات تعالج موضوعا واحدا او قضية معينة بذاتها .. اما ان يضم كتاب واحد مقالات مختلفة تتناول موضوعات متباينة فأمر لا يجرؤ عليه الا القليل من الادباء .. ذلك ان مثل هذا الكتاب يتطلب مقدرة خاصة على اختيار الموضوع وعرضه وصياغته بحيث يكون لكل مقال قيمة ذاتية تبقى على الدهر ولا يؤثر فيها مرور الايام والليالي ومن قبيل ذلك على سبيل المثال وليس الحصر فيض خاطر احمد امين ووحي قلم الرافعي وعبرات ونظرات المنفلوطي ووحي رسالة الزيات .

لذلك كنت مشفقا على الاديب المغربي الاستاذ محمد الصباغ عندما تلقيت كتابه « فوارة الظمأ » ووجدته يضم ما يقرب من خمسين مقالا كتبت في اوقات متباعدة وتعالج موضوعات مختلفة .. كنت مشفقا عليه ان يكون قد اكتفى بتضمين كتابه بعض مشاهداته اليومية العابرة باسلوب يقرب من اسلوب الصحف اليومية لكنني ما كدت اغوص بين دفتي الكتاب حتى وجدتني امام فنان صادق الحس بارع اللفتات يكتب بوحي وجدانه ومشاعره ويفلسف كل شيء .. الحياة والموت .. الربيع والخريف الجبال والسهول .. ويصوغ كل ذلك في اسلوب عربي خالص لا اثر فيه لثقافة اجنبية ويتسم بالرشاقة والجزالة معا ..

وفي مقال « خلود » وهو اول مقال في المجموعة يعبر المؤلف صادقا عن شعور الاديب الذي يعتز برسالته في الحياة وتهفو نفسه الى اعز ما تعطيه الحياة للاديب « الخلود » .

(كل ما في الوجود يتعرى .. حتى النسمة المترقرقة على خدود الاغصان .. حتى اشباح الوهم السارية في مشاعر الظلمة الواهنة ، حتى النأمة التائهة في مزالق الصمت الرهيب . عاريا ارى كل ما في الوجود وعاريا السه .. فالزمن القديم والحديث في ريشتي الوان واصباغ ارسم بها لوحة الخلود ... والمطلق العميق والمدى السحيق زجاجتان ارى من خلالهما نطفة الحياة تفرخ وتلد وتتزاوج برقة الخيال اخلق عالما يمور بالسحر والحمام وصفار العصافير .. وبيقظة حس احضن النجوم من مزارع الضوء واختلس الاحلام من مضاجع الصبايا ومراقص الاعراس مشيدا لكم منها قصورا تروحون وتغدون واحيانا تطيشون منها الى فراغ الزمن) .

ويستشعر الاديب المرهف الحس ان الخلود الذي يحلم به لكتاباته لن يشهده في حياته فيصدح وهو يعتصره الالم (غدا يهوى جسدي من شرفة النجوم فينكسر على الارض شظايا عطر وسر وسؤال مبهم وستظل العوالم التي اكتشفتها لكم خالدة وستظلون انتم تحيون في عرصاتها الغيبية كلما فاح زهر ولمع نجم وغرد طير والقى سؤال ..)

وبقدر ما يعيش الاديب الحياة ويتغنى بها بقدر ما يعز عليه فراقها فلا غرو ان يعاود اديبنا الشاب الحديث عن الموت في مقال آخر بعنوان « هكذا اخترت ميتتي » (... وستغرب الشمس علي وانا تحت ملاءات التراب جذرا من الجذور وسيطلع القمر كما كان يطلع علي وعلى الناس بالامس ضاحكا لامعا مستبشرا وسيبقى نسيم الفجر ناشرا من جيب صنوته الندى والفراشات على الحقول والروابي بسخاء وسيظل طريقي الذي اسلكه من بيتي الى مكتبي في الصباح وفي المساء في زحمة من الناس والدواب ، والسيارات وستبقى امي وحدها ستبقى منتظرة على عتبة البيت عودتي .. وفجأة بدون مقاومة مني ولا اعتراض ولا احتجاج وبدون ما سبب سأختفي مكفنا بالوحدة والسكينة ومشيعا بمناديل الورد والفل واطفال النجوم ونبات الجداول وفي الحال سأتحول الى نبأ في جريدة والى عبارات نفي في رسالة والى حديث يدور بين

أصدقائي في الاسابيع الاولى كلما اجتمعوا ...)

ويتصور المؤلف ان الحياة ولا بد ستعوض بلاده عنه بطفل جميل يقضي سنيه الاولى في الغابة ثم يتحول عنها الى المدينة يسير على دربه ويحمل رسالته . (في ذلك اليوم وفي الساعة الخامسة صباحا منه سيلقى الفجر مع الندى في حدائق بلادي طفلا ستكسوه الزهور باكمامها وسيطعمه البنفسج من ذوب خدوده سيعيش في الغاب مدة طويلة تائها في الوهاد وشعاب السهول والاودية ثم يدخل الى المدينة منتصرا . احفظوا هذا التاريخ احفظوه وترقبوه وانتظروا ولادة هذا الطفل . هكذا اخترت يوم موتي وهكذا اخترت ميتتي فلفحتها بولادة هذا الطفل .. اخترتها من بين جميع الاشكال والالوان .. والاوضاع ومن عديد الظروف وكتبت بها وصيته للموت والحياة ..)

ويهتز الاديب الصباغ لجمال الطبيعة في بلدته « تطوان » ... (في الصباح انت امواج من فل ورغى وفي الظهيرة براكين تقذف حجر القرنفل والورد وفي المساء قوافل من جمال تسير متجهة نحو الغروب وهي تجتر اعشاب النور .. كم من مرة وقفت امام قوافلك وهي تتحرك متئدة متزنة صامتة صابرة ومن حركاتها تتخذ اشكالا وصورا عديدة هي غاية في الروعة والجمال ..)

وفي غمرة النشوة بلقاء الربيع يعلن (من يشهد ولادة الربيع ولو مرة في حياته يعش في ربيع دائم وفي شباب دائم لا تدركه الشيخوخة .. واني ادعوكم جميعا الى قمم الجبال في السنة المقبلة لتشاهدوا ولادة الربيع ولا تسألوني كيف سيولد ..)

وكما دعا الناس ليشهدوا ولادة الربيع يدعوهم ليخرجوا من مساكنهم ليستقبلوا الخريف (اخرجوا من مساكنكم ايها الناس وافتحوا ابوابها ونوافذها وشبابيكها لهوج الرياح لتعصف باوراق نقوشها وزخرفتها الكاذبة ومراياها الخداعة المنافقة واسرتها ووسائدها ذات النوايا الميتة والشهوات الزائفة وموائدها المرتفعة بالجشع والنهم ..

افتحوها على مصراعيها للرياح لتصدح باوراقها المريضة وتجنح بها مع اوراق هذا الخريف الى دون رجعة .. اخرجوا وسارعوا الى مطهر الرياح وافتحوا لها صدوركم واعرضوا عليها اجسادكم كيما تسقط اوراقكم الذابلة .. اخرجوا ولا تتأخروا لئلا يدخل عليكم فصل الشتاء واجسامكم ما زالت تحمل اوراقها المريضة الصفراء) .

وفي الكتاب حديث عن بعض الادباء والشعراء المعروفين في العالم مثل الشاعر اليوناني بالماس والكاتب الروسي انطون تشيخوف والشاعر الاسباني رامون خوان‌خيمنث والموسيقار شوبان‌والشاعر الفيتنامي نجوين والشاعر العربي ايليا ابو ماضي لكنه ليس حديث الناقد الدارس ولا المؤرخ المدقق وانما حديث الفنان ينبع من القلب ويتجه الى القلب مجتازا اسوار النقد وحدود الدرس الى آفاق رحبة من التأمل ..

والكتاب اقرب ما يكون الى الشعر المنثور وهو في مجموعه يسوده طابع التأمل .. فالمؤلف لا يقبل من الحياة ظاهرها وانما يغوص الى اعماقها بحثا عن كنهها واسرارها وهو في رحلته هذه جريا وراء الاسرار ينظر الى كل ما يصادفه نظرة المتفرج الى رواية مسرحية شائقة عجيبة الاحداث .

المؤلف ذو حس مرهف وقد اورثه هذا الحس المرهف نبرة حزن لا تفارقه وهو يتحدث عن نفسه وعن الطبيعة وعن البشر وعن كل ما يزخر به الوجود .. وشدة الاحساس جعل المأساة في الحياة هو الخيط الذي يشد معظم مقالات الكتاب .. هذا الاحساس يبدو ظاهرا واضحا عندما يتحدث عن الموت والخلود واستار الغيب والادباء والشعراء الذين رحلوا عن هذا العالم ويستتر احيانا وراء الالفاظ العذبة والصور الجميلة عندما يتحدث عن الطبيعة .. لكن القارىء يستطيع أن يلمح في سهولة ويسر من بين ثنايا تلك الالفاظ والصور روح فنان تغنى بالحياة واعطاها كل شيء ولم تعطه الا « فوارة الظمأ » .

واذا كان هناك ما يؤخذ على الكتاب فهو قصر المقالات وكثرتها في‌وقت

واحد .. ولو عني المؤلف بان يوفي كل موضوع حقه من التعمق والتأمل والدراسة وحذف بعض الخواطر الشاردة التي لا ترقى الى مستوى الكتاب مثل يوميات حب التي اهداها الى ل.م.م. ... اذن لجاء الكتاب على صورة اكثر روعة .. واخيرا .. فانني اتمنى لو يصرف المؤلف جهده او بعض جهده الى كتابة القصة .. فان من اوتي مثل هذا القلب الذكي والحس المرهف والخيال الخصب والقدرة على التعبير جدير لو اخلص لهذا الفن أن يكون من طليعة كتاب القصة في العالم العربي .

الاسكندرية **فوزي عبد القادر الميلادي**

•

ديوان رشيد الهاشمي

جمع وتحقيق عبد الله الجبوري – ١٦٠ صفحة – طبع بمساعدة المجمع العلمي العراقي – مطبعة المعارف ببغداد

انه لمن الفخر ان نرى بين شبابنا شابا لم تجرفه التيارات التي طرأت على ادبنا وادبائنا فراح البعض يتحدث عن « العبث » وراح البعض الآخر يتحدث عن « اللامعقول » وغيرها من التيارات التي يشجعها ويغذيها الغرب الهرم .

وعبد الله الجبوري واحد من شبابنا ، نذر نفسه لخدمة الضاد وراح يغوص في تراثنا العربي الثر ليخرج الدرة اثر الدرة . وهو بعد هذا شاعر مطبوع استطاع خلال أقل من سنتين ان يضيف للمكتبة العربية اربعة كتب بين موضوع ومنظوم ومحقق وهي : نقد وتعريف (دراسة) واشباح وظلال (ديوان شعر) ١٩٦٢ وديوان ابن النقيب ١٠٨١ هـ (شرح وتحقيق) من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٣ . وله اكثر من مخطوط في طريقه الى المكتبة .

ولعل متتبعي نتاجه يحمدون له اهتمامه بازالة الصدأ عن حقبة تكاد تكون مجهولة لدى اكثر ادبائنا بل وحتى مختصينا اعني بها فترة القرن التاسع عشر الميلادي (خير من كتب عن هذه الفترة الدكتور يوسف عز الدين في كتابيه القيمين : الشعر العراقي اهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر – مطبعة الزهراء – بغداد ١٩٥٨ والشعر العراقي الحديث واثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه – مطبعة اسعد – بغداد – ١٩٦٠) التي تعتبر بداية المخاض للشعر العربي الرصين بعد عهود تردى بها الادب نتيجة الترهل الفكري الذي خيم على ادبنا العربي اثناء الحكم العثماني .

فكان ان اسعفه بصر بالقديم وغيره على الادب العربي في هذه الحقبة دعته الى ولوج هذا الباب الذي لا يلجه الا من تزود بحماسة تشفع له باجتلاء ما حوته من كنوز فكان كالغائص يبحث عن الدر بين الاحجار فكان له ما اراد .

وهذا « ديوان رشيد الهاشمي » (١٨٩٦ – ١٩٤٣) يخرجه الجبوري بحلة قشيبة واخراج بديع وقد دفعه شعوره القومي الوثاب اهداء الديوان الى صلاح الدين الايوبي محرر بيت المقدس وبطل الحروب الصليبية واشفعه بتذكير وتحفيز الزعماء العرب بالعمل على استعادة فلسطين ارض العرب المغتصبة وكنت آمل ان يهديه الى روح الشاعر العبقري الذي مات دون ان يكحل عينيه برؤية ديوانه مطبوعا .

وقد جاءت مقدمة الاستاذ العلامة محمد بهجة الاثري جامعة شاملة ازاحت الستار عن فترة سوداء عاشها العرب يصارعون المستعمر ويجاهدون في سبيل نيل الاستقلال والحرية وتحدثه فيها باسلوبه البليغ عن الشاعر ونضاله ضد الطغاة وتشريده ثم مأساته الدامية وموته .

ثم تأتي مقدمة المحقق الفاضل فيتحدث عن الشاعر واسرته التي تنتمي الى الفقيه الشيخ علاء الدين الحموي ثم يتحدث عن والد الشاعر (يحيى بن عبد القادر – ١٩٠٥) وكان من المتصوفة الفقهاء وقد انجب اربعة اولاد بينهم الشاعر وقد عنوا بالعلوم وبالادب العربي وهم : السيد عبد المجيد وكان قاضيا ومفتيا وقد توفي سنة ١٩٤٦ والسيد عبدالرزاق وكان قاضيا وشاعرا شارك في ثورة العشرين وتوفاه الله قبل بضعة شهور والسيد محمد من المشتغلين في القضاء ايضا كما انه شاعر مجيد وله مؤلفات قيمة . امد الله في عمره . (ترجم له الدكتور يوسف عز الدين . انظر : مجلة المجمع العلمي العراقي – المجلد العاشر – ١٩٦٣ – ص ٣٥٩) .

وقد تحدث المحقق عن جهاد الشاعر وصراعه ضد الطغاة وهروبه الى الحجاز بعد ان حكم عليه بالاعدام ثم تنقله بين القاهرة ودمشق حيث وظف في المجمع العلمي العربي بدمشق في اول تأسيسه عام ١٩١٩ ثم عودته الى العراق ومطاردته من قبل الملك فيصل ثم تكلم عن مشاركة الشاعر عالم الصحافة حيث رأس تحرير جريدة « الرافدان » وبعد تعطيلها رأس تحرير جريدة «دجلة» التي اصدرها المحامي داود السعدي. ووصف مأساته المروعة ابان دخوله كلية الحقوق ، قبيل تخرجه بقليل اذ اصيب بصدمة نفسية عنيفة جدا افقدته عقله فادخل « مستشفى المجانين » ولبث فيها نحوا من سبعة عشر عاما نسيا منسيا . وقد اشار الاستاذ الاثري في مقدمته ص ١٧ الى انه اصيب بهذه الصدمة اثر حب يبدو انه كان فاشلا (هو الجمال الذي صاحبته ، صباحته في كلية الحقوق ففتنته فتنة لا حد لها ، تغلغلت في اعماقه واضرعته ، فما شارف نهاية مرحلته التي تظفره بشهادة التخرج ، حتى بدأ عليه الاختلال) ..

ثم بين ان الشاعر عمد الى جمع شعره واودعه في كراسات صغيرة بغية طبعه في بغداد عام ١٩٢٣ ولكنه ظل « مرتهنا يشغل حيزا من زاوية متواضعة في مدارج مكتبة شقيقه الاستاذ محمد الهاشمي » حتى قيض الله له الاستاذ الجبوري لينشره .

وجدير بنا ان نقول ان الشاعر قد تأثر بابي الطيب المتنبي وبعض الشعراء الفرسان فاسمعه يقول :

يا رائد العرب هات الضمر القودا	أغر القنا والمنايا والصناديدا
اليت ان لا تنام الدهر عن ترة	ولا تنال الا السادة الصيدا
ولا تذوق شرابا غير ما عصرت	حمر الصفاح نقيا ليس مورودا
غنت لي الخيل في الهيجاء صاهلة	واستذعرت اذ رأت اجنادي السودا

وقال مخاطبا قومه :

الى الوغى هبوا وحمل السلاح	واسترجعوا ما فات قبل الصباح
من نام عن اوطانه غافلا	يصبح في عرض ومال مباح
والعز كل العز في امة	تحمي حماها بعوالي الرماح

والديوان بعد هذا يطفح بالقصائد التي تنبض حبا بالعرب والعروبة. وكنت اود لو ان المحقق الجليل نسق الديوان كما اراد الشاعر ويصنع له ذيلا يضمنه ما عثر عليه في الجرائد والمجلات او ان يرتب الديوان حسب القوافي او حسب الاغراض ولكنه لم يفعل .

وقد احسن اذ اثبت في نهاية الديوان قصيدة رائعة للسيد محمد الهاشمي في رثاء شقيقه الشاعر مطلعها :

قل لهم ما وفاء حق الاديب ؟	شغلوا عنك بالزمان العصيب

وقد الحق الديوان بفهارس تشمل الاعلام والامكنة والبقاع والتصويبات ومواضيع الديوان سبقها باسماء المراجع التي اعتمدها والتي تجاوزت الستين مرجعا منها القديم ومنها الحديث .

وبعد ، فان طبع ديوان الهاشمي فتح الطريق للنقاد كي يدرسوا شاعرية الهاشمي ويقيموا عبقريته الفذة وحماسه القومي المتأجج وبذا يسدون خدمة جليلة لامتهم وادبهم . وفي الختام لا بد لنا أن نشكر المجمع العلمي العراقي الذي ساعد على طبع هذا الديوان فجزى الله القائمين عليه كل خير من الادب واهله . ونرجو للاستاذ الجبوري التوفيق في احياء التراث العربي الخالد .

بغداد **جليل العطية**



جولة الأديب في شهر

ساعة مع القصاص المصري الدكتور يوسف ادريس

كان علي ان اقـوم بواجبـي كتلميـذ مطيع حينما طلب الي ان اقـوم بمهمة التعارف بين استاذتي الدكتورتين اولجـا فرولوفا رئيسة قسم اللغة الروسية بمدرسة الالسن العليا ، وجيناريتا نيكولايفنا المدرسـة بهذا القسم ، وبين القصاص الدكتور يوسف ادريس .

والدكتورة اولجا تشغل وظيفة استاذة اللغـة العربية في جامعـة لينينجراد وتقوم في هذه الجامعة باول تجربة من نوعها ، وهي الترجمة الالكترونية من العربية الى الروسية وبالعكس ، وقد قامت بترجمة بعض المجموعات القصصية العربية الى اللغة الروسية .

والدكتور يوسف ادريس يعتبر من المع كتاب القصة القصيرة الذين ترددت اسماؤهم في السنوات العشر الاخيرة ، وقد تخرج في كلية الطب ، ومارس المهنة لفترة قصيرة ، ولكن اهتمامه الاول كان الادب والصحافة عامة ، والقصة بنوع خاص ، حتى استطاع الاتجاه الادبي ان يجتذبه في النهاية ، فهجر الطب ، واحترف الكتابـة .

وقد هيأه للنجاح في هذا الاتجاه امتزاجه المتفاعل المثمر بمختلف طبقات الشعب ، وان بدت عليه سيماء الارستقراطية ، وقد عبر عن مشكلات الشعب بقلمه ، كما شارك في حلها بسواعده ، اذ انتظم في الحركة الوطنية في فترات الغليان واندمج في صفوف الفدائيين الذين قاموا بحرب العصابات لطرد الاحتلال من منطقة قناة السويس قبيل الثـورة .

وتتميز قصصه بالحيوية والحركة والواقعية ، والتعبير عن صميم الشعب ، وهو من انصار الادب الهادف ذي المحتوى الثوري .

وقد اشتغل مراسلا حربيا في كثير من الحروب وخاصة حرب الجزائر كما زار كثيرا من البلدان كان آخرها الاتحاد السوفييتي .

وقد لقيناه في مسكن متواضع يتميز بالبساطة والتقشف ، فليس هناك تحف ، ولا اثاث فخم ، وجو المنزل صامت يوحي بانه يضم بين افراده شخصية متحفزة للعمل دائما . كما ان الملامح الصارمة ، وجدية التعبير ، ومتانة التركيب ، تريك لاول مقابلة ان وراء هذه المظاهر روح المغامرة ، والاعتزاز بالنفس ، والتمرد على الواقع . وبعد ان تجرعنا الشاي الساخن الذي قدمه لنا في عز الحر ، جرى بيننا وبينه الحديث التالي :

السؤال الاول : يقولون انك اقرب الكتاب العرب الى القراء في الاتحاد السوفييتي ، وقد ترجم الكثير من قصصك الى اللغة الروسية وفـي النية ترجمة المزيد منها . فاي اعمالك تفضل ان يترجم الى الروسية قبـل غيـره ؟

الاجابة : لا استطيع ان احدد عملا معينا ، فوجهة نظري ـ حتـى بالنسبة لانتاجي ـ قد تختلف مع وجهات النظر الاخرى ، وللمترجم ان يختار ما يروق له ، فقد تكون لقصة ما اهمية خاصة في نظري ، ولكنها في نظر الآخرين لا شيء ، والامر بالعكس . وانا قد اقرأ لكثير من الكتاب العالميين بعض انتاجهم المشهور ، فاخرج من القراءة وانا اتساءل : لماذا كتبوا هذا ؟ ولاي هدف ؟

من امثلة ذلك قصة « دعابة » لتشيخوف ، حين اقرؤها لا اجد فيها ـ من وجهة نظري ـ ما يرفعها الى مستوى الانتاج العالمي ، او مستوى تشيخوف نفسه ، وقد ينتهي الامر في كثير من الاحيان بان اتهم نفسي بانني لم ارتفع بفهمي الى مستوى هذه القصة التي يعتبرها الكثيرون في القمة .

والخلاصة ان الكاتب لا يستطيع ان يفرض بعض انتاجه او يفضله من وجهة نظره الخاصة ، ولكن من الاجدى ان يترك للاخرين ان يختاروا منه ما يروقهم .

ـ اذا لم يمكن اختيار قصة بالتحديد ، افلا يمكن ـ من باب التيسير على المترجم ـ ان تشير الى مجموعة بعينها ، تفضل ان يطلـع عليهـا القارىء الروسي ، مع ملاحظة ان معظم مجموعتي « ارخص ليالي » ، و « اليس كذلك ؟ » مترجمة الى الروسية ؟

ـ اقترح مجموعة « آخر الدنيا » ومجموعة «العسكري الاسود» .

ـ المواطنون في الاتحاد السوفييتي يهتمون في الدرجة الاولى بالقصص العربية التي تصور كفاح الشعوب ، او تعالج مشكلات المجتمع ، فاي مجموعاتك تحمل هذا الطابع ؟

ـ من هذه الناحية « جمهورية فرحات » ، وقصة جمهورية فرحات بالذات ، التي تحمل هذه المجموعة اسمها .

السؤال الثاني : ما رأيك في نهضة الادب العربي المعاصر بوجه عام ؟ والقصة المصرية بوجه خاص ؟

الاجابة : الادب العربي يجتاز في هذه الآونة فترة مبلبلـة حـائرة ، لا يستطيع فيها ان ينطلق او يتخلف ، فكثير من الوجوه المعـروفة قـد انزوت ، وكثير من الوجوه الجديدة التي ظهرت عام ١٩٠٢ قد تجمدت ، وهذه الظاهرة تحتاج الى ناقد عميق النظرة ليتقصى اسبابها ، ويتبين الدوافع التي ادت اليها .

ـ ومن وجهة نظـرك ؟

ـ في رأيي ان الادب المعاصر لم يستطع ان يتفاعل مع الاحـداث العربية والعالمية بعمق ، لا لعيب في الادب ، ولكن لان الاديب يعيش في جو ضبابي لا يستطيع ان يتبين فيه وجه الحقيقة ، ولا تستبين له الرؤية الواضحة التي تدفعه الى التقدم ، وما لم يعط الاديب الاطمئنان والامان فلن يستطيع انتاج الادب التي يسمى ادبا .

ولهذا كانت حيرة الادباء ، وعدم تحديد اهدافهم من عوامل التجمـد والعزلة ، ونتج من هذا ان انزوى البعض ، وغير البعض الآخر مجرى حياته الادبية ، وظل بعض ثالث يكرر نفسه ، وينحت من قوالـب الادب القديمة ، او يعيش على التراث الاجنبي .

هذا شيء .. والشيء الآخر ان الادب المعاصر ينحت مثله وقيمـه الجديدة من ذات نفسه ، فهو منفصل انفصالا يكاد يكون تاما عن تراثه القديم ، ومنفصل عن تيارات الآداب العالمية .

فاذا صرفنا النظر عن احياء التراث وعن المترجمات ، وجدنا الادب العربي الحديث ـ الجدير بهذه التسمية ـ يبدأ من جديد في بنـاء شخصية الادب المعاصر ذي الخصائص المميزة عن اصله القـديم وعـن الروافد الغربية التي استمدها في بداية نهضته .

اما القصة العربية ـ والمصرية بنوع خاص ـ فقد خطت خطوات واسعة في الطريق الى المستوى الذي نرجوه ، وهي في الواقع انشط الوان الانتاج الادبي عندنا .

السؤال الثالث : ما رأيك في الكتاب المصريين بوجه عام ؟ وهل ترى انهم وصلوا الى مستوى الانتاج العالمي ؟ وايهم ترشح ليكون كاتبا عالميا ؟ واي اعماله ترشحه لهذا المستوى ؟

الاجابة : ادبنا لا ينزل عن المستوى العالمي كما قلت لعيب في الادباء انفسهم ولكن لاسباب اخرى خارجة عن طاقاتهم ، ومن هذه الاسباب : قلة الثقافة العميقة الاصيلة الواعية . وعدم العناية بفهم حقيقة الشعب فهما مباشرا ، والاندماج في مشكلاته ، والانفعال بنبضاته ، وتحركاته ، وتناقضاته . والاعتماد على الادب القديم في ناحية ، وعلى الادب الاجنبي

في ناحية اخرى . وعدم وجود الاديب المحتـــرف الذي يعيش لادبه ، ويؤمن به ايمانه بوجوده .

ـ ربما كان هذا من بعض واجبات الدولة ، فهل انت من القائلين بمبدأ ان على الدولة ان تهيء للاديب اسباب النجاح ووسائل الانتاج ؟

ـ ليس هذا من رأيي ، فواجب الدولة شيء ، واخلاص الاديب لمهمته شيء آخر . ان الاديب المحترف يجب ان ينبعث اهتمامه بادبه من ذات نفسه ، سواء اعانته الدولة ام لم تعنه ، وان يكـــون مخلص لنفسه ولمهمته الاخلاص الذي يصل في بعض الاحيان الى حد الهوس ، دون ان ينتظر الدوافع الخارجية التي تحفزه للعمل أو تحدد له طريقه .

لقد ادركت في قريتنا رجلا آمن بان التدخين خطر على صحة الناس وعلى اخلاقهم وعلى كيانهم الاجتماعي ، فراح ينهي الناس عن التدخين بكل الوسائل : يكتب على الجدران ، ويخطب في المجتمعات ، ويطرق ابواب البيوت ، ويقتحم المجالس في القرية والقرى المجاورة ليلا ونهارا، لا يعبأ بالحر ، ولا بالبرد ، ولا بالجوع ، ولا بالظلام ، ولا بالخوف ، ياكل ما يقع تحت يده من الطعام ، وينام في اي مكان يتاح له ، ويحرم نفسه من الراحة ، بل ومن كل وسائل الحياة ، لانه آمن برسالته على ضآلتها ، واخلص لها الاخلاص كله . والاديب الاصيل ـ في رأيي ـ يجب الا يقل ايمانا بمهمته عن هذا الداعية الذي اغرم بمهمته الى حد الجنون .

ـ الملاحظ ان الادباء المحترفين لم يستطيعوا ان يعتمدوا على اقلامهم كوسيلة للعيش الا بعد ان اصبحوا في سن متقدمة ، لا تمكنهم من انتاج شيء جديد يرتفع الى مستوى انتاجهم الذي ظهر لهم في صدر الشباب، وفي فترة الكفاح ، وان المحترفين الكبار ليست فيهم الطاقة الكافية للخلق والابـــداع .

ـ هذا يلقي على شباب الادباء مسئولية اكبر ، فعليهم ـ كما قلت ـ ان يخلصوا لمهتهم في سن الفتوة والابداع ، دون ان تأخذهم المظاهر ، او تستهويهم القيم البراقة ، وعليهم ان يكرسوا الجهد كله للانتاج قبل ان تخبو الطاقة الخلاقة المبدعة المشتعلة في قلوبهم .

ـ لنعد الى الكتاب المصريين الذين استطاعوا ان يحققوا مستـــوى عالميا بانتاجهم .

ـ بعض كتابنا استطاع ان يحقق بانتاجه مستوى رفيعا للادب العربي الحديث ، وبعضهم ما زال على الطريق . وانا اذكر من الذين حققوا هذا المستوى على سبيل المثال : يحيى حقي في مجموعته « دماء وطين » ، وطه حسين في عمله الفني الفريد « الايام » ، ومعظم مطولات نجيـــب محفوظ ، وبعض اقاصيص ابراهيم المازني . ومن الذين تبشر اعمالهم بمستقبل طيب : محمود البدوي ، ويوســـف الشاروني ، وعبد اللـــه الطوخي ، وبدر نشأت ، وشكري فيصل ، وفهمي حسين .

هذا في ميدان القصة ، وهي ـ كما سلف ـ ابرز الوان النشاط في الميدان الادبي . وهناك الشعر الحديث الذي حقق في بعض جـولاته مستويات لا تقل عن المستوى العالمي ، مثل اشعار صلاح عبد الصبور ، واحمد عبد المعطي حجازي ، وعبد الرحمن الشرقاوي .

ـ لم تذكر احسان عبد القدوس ضمن كتاب القصة ، مع انه مشهور بين كثير من الطلبة والطالبات ، فاين موضعه بين كتاب القصة المعاصرين؟

ـ احسان يكتب للجنس ، لكي يقرأه الفتيات والفتيان في سن معينة، ثم ينصرفوا عنه حينما يحسون ان هناك فنا قصصيا بالمعنى الصحيح . وكتابات احسان تذكرني ببعض المطاعم التي اشتهرت بتقديم المشتهيات لروادها ، فهم يرتادونها لا بحثا عن وجبة دسمة او مطهية بعناية ، ولكن لمجرد فتح الشهية . اما انه مقروء على نطاق واسع ، فلانه يملك مـــن وسائل النشر ما ليس في متناول غيره من الكتاب ، فهو يشرف على دار صحفية ضخمة تنشر الصحف والكتب، وقصصه تنشر مسلسلات في هذه الصحف ، ثم تجمع وتطبع في كتب ، ثم تذاع في مسلسلات الاذاعة ، ثم يقبل عليها جمهور السينما لانها تقـــدم لتسلية هذا الجمهور من المراهقين والمراهقات . واحسان يمثل طائفة من الكتاب المنتشرين فـــي

كثير من بلاد العالم لتسلية القراء دون ان يحلوا ازماتهم ، او يتعرضوا لمشكلات المجتمع .

السؤال الرابع : ما هي القصة التي لم تكتبها بعد ؟ وهل تخطط لقصصك تخطيطا معينا؟ وما هي الخطة التي وضعتها لانتاجك في المستقبل؟

الاجابة : القصة التي لم اكتبها ولن اكتبها ، هي قصة حياتي . اما انتاجي فهو نابع من البيئة ، ومن تفاعلاتي معها ، فبعض انتاجي يعبر عن مشكلة خاصة احسست بها ، او بعضه يعبر عن ظروف المجتمع ومشكلاته التي انفعلت بها ، وكل هذه العوامل الداخلية والخارجية تتعاون على اكتمال العمل الادبي .

وليس لدي تخطيط بالمعنى المقصود ، لا بالنسبة للقصة كعمل ادبي ، ولا بالنسبة للانتاج في المستقبل ، فقد افكر في موضوع معين ، واستغرق فيه ، ثم تطرأ ظروف او موضوعات تزيحه مؤقتا ، ولكنها لا تحجبه نهائيا . ومن الموضوعات التي احاول منذ زمن طويل ان استكملها قصة « البيضاء » التي نشرت بعض اجزائها مسلسلة في الصحف ، وبعض اجزائها لم تنشر ، ونهايتها لم توضع بعد ، وما زال ينقصها حوالي مائة صفحة .

السؤال الخامس : ما رأيك في مشكلة العامية والفصحى بالنسبة للقصة العربية ؟

الاجابة : المشكلة في رأيي مصطنعة وليست حقيقية ، لان عصور الادب كلها لم تفرق بين التعبير بالعامية والتعبير بالفصحى ، اذ ليس من المعقول ان يفكر الانسان بلغة ، ويكتب بلغة اخرى ، فهذه ازدواجية لا يمكن ان توجد في الانسان ، لانه ليس كالآلة ، يدير احد المفاتيح فيكتب بالفصحى، ويدير المفتاح الاخر فيكتب بالعامية .

وانا اتساءل : لماذا نبذ الناس الفصحى في تخاطبهم ؟ لانها فقدت فاعليتها ، وتجمدت ، ونحن نلاحظ دائما في مناقشات المؤتمرات والندوات والمجالس النيابية ان المتكلمين يتحدثون بالفصحى حينما يكون الموضوع مباراة كلامية ، وحينما تصادفهم فكرة عميقة يريدون ان يعبروا عنها تعبيرا مباشرا مفهوما ، فانهم يلجأون الى العامية ، لتعبر التعبير الحاسم المفهوم .

وتجربتي الشخصية في اعمالي الفنية ، انني استهلكت كل الجوانب المتناقضة والمصطنعة في كل من العامية والفصحى ، وخرجت بلغة جديدة استطيع ان اسميها « اللغة الثالثة » ، ليست هي الفصحى ، وليست هي العامية ، ولكنها لغة الحقيقة ، فانا لا اتقيد بالفصحى ، ولا بالعامية، ولكني اعبر بهذه اللغة التي ارتضيها للتعبير الفني .

فالمشكلة - اذن - مشكلة فنية ، وليست لغوية ، اذ ان الفنان قادر على ابداع اللغة التي يعبر بها عن فنه ، دون ان يتلقاها من الناس . وفي رأيي ان كل ما كتب بالفصحى ليس فيه شيء ، وقد قرأت كل ما كتب بالفصحى قديما وحديثا فلم اجد فيه فنا او شيئا ذا قيمة ، حتى ليمكننا ان نلغي التراث العربي كله بجرة قلم دون ان نفقد شيئا ، اذ ليس لدينا ما يمكن ان نحتفظ به سوى كتب قليلة ، من بينها مقدمة ابن خلدون ، والاخبار الطوال ، وعدد قليل من المراجع التي عبرت عن الحقيقة ، او تناولت مشكلة الانسان في ابعادها الحقيقية .

وانا اعجب لوزارة الثقافة ، كيف تهدر جهود كثير من الكتاب الناجحين، فلا تنشر لهم شيئا ، بينما تبذل الجهود الطائلة في نشر التراث القديم دون اختيار دقيق .

- من حسنات وزارة الثقافة انها نشرت ما تحبذ انت نشره مثل مقدمة ابن خلدون ، والاخبار الطوال .

- انا لا اعترض على كل ما ينشر او يحقق ، ولكني اقول : يجب ان نختار ، وادعو الى تركيز الجهود على ناحيتين : الاولى : اختيار القدر الصالح من التراث لتحقيقه ونشره في المجال الضروري . الثانية : ترجمة الروائع العالمية التي تثري ادبنا الحديث . ان هذين التيارين لا بد من وجودهما ، ولا بد ان يتفاعلا ويساعدا على تكوين الشخصية العربية الجديدة في الادب والفن .

- انت قد مجدت بعض اعمال طه حسين ، ويحيى حقي وغيرهما وهي مكتوبة بالفصحى .

- انا اعتبرت ان الاثر الفني الفريد لطه حسين هو كتاب الايام ، ولم اقرأ اسلوبا اسلس من اسلوب هذا الكتاب في كل ما قرأت . وتوفيق الحكيم استخدم اللغة العادية في اعماله المبكرة مثل عودة الروح . ويحيى حقي يعبر تعبيرا فنيا رفيعا ، لا يتقيد فيه بالقوالب .

السؤال السادس : لمن قرأت من الكتاب الروس ؟ وايهم اثر في فنك ؟

الاجابة : الكاتب الروسي الذي يهزني هزا عنيفا هو ديستويفسكي ككاتب قصة . والذي يهزني برفق هو تشيخوف ككاتب قصة قصيرة . اما جوركي فتعجبني براعته في رسم شخصياته ودقة تفاصيله . وجوجول ابرع كاتب يريك كيف يكتب . وعدا هؤلاء مجموعة كبيرة من الكتاب الروس ، قد يكونون اقل من هؤلاء شهرة ، ومن بينهم سولوجوف ، واندرييف . ومن الشعراء الذين اعجبت بهم كثيرا بوشكين ، ومايكوفسكي . ومن النقاد ارمينتوف شيخ النقاد فيما كتب عن تشيخوف وديستويفسكي .

القاهرة **رضوان ابراهيم**

•

الحركة الادبية في تونس

في تونس اليوم نهضة ادبية واسعة الافاق ، تجلت في مختلف الالوان ، لا سيما الشعرية منها والقصصية . والذي يلاحق الشعر التونسي الحديث ، في مختلف تياراته وتنويع الوانه ، يجد بانه قد اثبت وجوده في السنين الاخيرة ، خاصة بعد ان نالت تونس استقلالها . وجاء مرآة واضحة تنعكس عليها معالم حياة الشعب . ذلك انه عبر عن آلامه وافراحه . صور احداثه وازماته وانتصاراته . اطلق صيحات مدوية في وجه المستعمرين . تغنى بولادة الاستقلال . رسم لوحات ناجحة للحب. وصف طبيعة ارضه المعطاء . ندد بالخونة . وبكلمة ، ان اصحابه قالوا في قصائدهم ما ارادوا .

اسمع الشاعر احمد المختار الوزير ، في قصيدة دالية بعنوان «اخي»، يوجه كلامه الى المواطن التونسي داعيا اياه الى التفاؤل بغد مشرق الطلعة ، فوق ارض تموج فيها الحقول الخصبة ، وتنعش انسامها العليلة الاجسام ، وتتكاتف فيها الايدي ، وينطلق منها الفكر النير :

لنا غد وموعد ، ومشهد ومشهد
لنا ، مع الفجر الجديد ، امل مجدد
لنا الضحى ، ومعول يزهو ، وعزم ايد
لنا ، اخي ، فكر نبيغ مبدع ، لنا يد
لنا الحقول المانجات ، والجميم الاحصد
لنا النخيل ، والجن داني القطاف عسجد
لنا القطيع تاهت السهب به ، والنجد
لنا الظلال ، والمياه شرع ومورد

ويصف الهادي نعمان الحياة في قصيدة عنوانها «اطار الحمام» فيقول:

ان الحياة اذا استمرت بلقع ... ولذا تناسى او تفاءل مؤمنا
وحمامها في روضها لا يسجع ... تلك الحياة جمالها متكلف
وبكل خفق في الفؤاد توجع ... عاشت به آلامه في فرحة

ويقول نور الدين صمود ، وهو من الشعراء الذين اتبعوا النهج الحديث ، في قصيدة عنوانها « سياط النور » :

مزقي يا شمس جلباب الظلام
جففي هذي الطحالب
وازرعي الارض كواكب

واحرقـي ديدان هذا العفـن
جففــي المستنقعــات
واجعلــي الاضـواء تركـض
فــي عيــون الغافلــين
منــــذ آلاف القـــرون

ومن ناحية القصة التونسية ، فانها تتطور بشكل مرض . والمؤلفات القصصية التي تصدر باتباع لاكبر دليل على ذلـك . ومنها مجموعـة قصصية تحمل عنوان « اردنا الحياة » صدرت حديثا للقاصة والشاعرة ناجية ثامر . ضم كتاب « اردنا الحياة » اربع عشرة قصة اخذت الكاتبة مواضيعها من بيئتها التونسية . فصورت اشخاصا عرفتهم عن كثب . لقد تحدثت عن نضالهم المرير في سبيل سيادة وطنهم.. عن معاركهم ضد البطالة والجهل والبؤس .. عن سعيهم لتوفـــير حياة مليئة بالرغادة والطمأنينة .. عن اهتمامهم بتطوير مجتمعاتهم ... وكان كلامها مبنيا على صدق .. على حقيقة . والى جانب تصويرها الحي ، اتت باسلوب سلس لا تعقيد فيه . فلا غرو على ذلك ، والقاصة ناجية ثامر تعتبر اليوم في طليعة الكاتبات التونسيات . انها تحرص على معنى ومبنى كل جملة تسطرها سواء أكانت نثرية ام شعرية .

وهناك الوان اخرى ادبية تتطور بسرعة في تونس . ويطـول الكلام عليها هنـا .

هذا ، وبدأت الاوساط الادبية هناك تهتم لانجاح مهرجان ابو القاسم الشابي الذي سيقام في العاصمة التونسية ، في شباط القادم ، وقد دعي كبار ادباء وشعراء العربية للاشتراك فيه .

يعتبر الشابي في طليعة شعراء تونس . وكان شعره سجلا حافـلا لاحداث بلاده . ففيه صور واقع الشعب التونسي . صور حياة الفلاح والتاجر والصناعي والطبيب والمهندس والمحامي والاديب .. رسم صورا رائعة للابطال الذين سقطوا شهـــداء في ساحات الوغى ... هاجم المستعمرين وطالبهم بالجلاء العاجل عن ارض يبذل ابناؤها دماءهم في سبيل سيادتها واستقلالها وكرامتها . وصف لقاء الاحباب وصفا رائعا.. كما وصف لقاء التعساء والمعذبين . وقد كان يشعر بوضعهم المؤلم ، فيبكي ، ومرارا تتآكله الكآبة . اسمعه يقول في قصيدته «ارادة الحياة» التي وصف فيها ارادة الشعب التونسي التي وقفت بوجه التيارات الغريبة ، وقضت على العراقيل والصعوبات ، وحطمت الاغلال ، الى ان توصلت ان تحقق النصر الذي كانت تتوق اليه منذ سنين عديدة :

اذا الشعب يوما اراد الحياة — فلا بد ان يستجيـب القـدر
ولا بـد لليــل ان ينجلــي — ولا بـد للقيــد ان ينكسـر
ومـــن لم يعانقه شوق الحياة — تبخـر فـي جوهـا ، واندثر
فويل لـمـن لم تشقـه الحياة — مـن صفعـــة العـدم المنتصر
كذلك قالـت لــي الكائنـات — وحدثنـــي روحهـــا المستتر

ويوجه نداءه الى الشعب فيقول :

اين يا شعب قلبك الخافـق الحـ — ـساس ؟ اين الطموح ، والاحلام ؟
اين يا شعب روحك الشاعر الفـ — ـنان ؟ ايـن الخيال ، والالهام ؟
ايـن يا شعب فنـك الساحر الخـ — ـلاق ؟ اين الرسوم ، والانغـام ؟
ان يـم الحيـاة يـدوي حوالي — ك ، فايـن المغـامر المقـدام ؟
اين عزم الحياة ؟ لا شيء الا الـ — ـموت والصمت والاسى والظلام ؟
عمـر ميـت ، وقلـب خـواء ، — ودم لا تثـــــيره الالام
وحيـاة تنـام فـي ظلمـة الـوا — دي وتنمـو من فوقهـا الاوهـام

وتطلع الشابي خلف الحدود ، فرأى العديد من البلدان تئن تحت وطأة الطغاة الظالمين . فوضع قصيدة هائية حذر فيها هؤلاء الطغاة من التمادي في غيهم . فالشعوب ستثور يومـــا عليهم من اجل حريتهـا وكرامتها وعيشها الرغيد . يقول :

الا ايهـــا الظـــالم المستبـد — حبيب الظلام ، عـدو الحيـاه
سخرت بانات شعب ضعيـف — وكفـك مخضوبـة مـن دمـاه
وسرت تشوه سحـر الوجـود — وتبذر شـوك الاسى في ربـاه
حـذار ! فتحت الرماد اللهيب — ومن يبذر الشوك يجن الجراح
ورويـت بالـدم قلب التـراب — واشربتـه الدمع ، حتـى ثمل
سيجرفك السيل ، سيل الدماء — ويأكلـك العاصـف المشتعـل

ان مهرجان الشابي هو مهرجان شاعر كبير تبوأ مرتبة عالية في دولة القريـض .

وبعد ، هذه لمحة موجزة عن الحركة الادبيـــة الحاليـــة في تونس . والملاحظ انها تتطور بشكل مرض ، لا سيما الاعمال الشعرية . فالشعراء تعلقوا بالشعر الحديث ، وهم الآن يعملون جهدهم لانتشاره في سائـر الاقطار العربية .

ابراهيم عبده الخوري